المكتبة الأهلية . بمصر

غابر الأندلس وحاضرها

تأليف
محمد كرد علي
رئيس المجمع العلمي العربي

الطبعة الاولى
سنة ١٣٤١ هـ — ١٩٢٣ م

المطبعة الرحمانية بمصر

الاندلس

زرت في الشتاء الماضي (١٣٤٠ — ١٩٢٢) بعض امهات مدن الاندلس فأرادني غير واحد من الاحباب على أن أحدثهم بطرف مما شاهدت في ربوعها من بقايا حضارة العرب ، فأجبتهم الى رغبتهم ، شاكراً حسن ظنهم ، وقد رأيت أن أشفع مشاهداتي ، بشيء من مطالعاتي ، عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر ، وجه الحاضر ، ويقيس في الجملة ما كان هناك في عهد أمتنا ، على ما هو كائن اليوم في عهد غيرهم ، أذكر ما أثره العرب في تلك القاصية من حضارة ، وأتلوه من مجد خالد على جبين الدهر ، والسبب الذي به إرتفعت الأندلس حتى عدت أرقى مملكة في عهد شبابها ، والاعراض التي عرضت لها ، فهرمت فزال سلطانها ، وتداعى عمرانها ، وابذعر سكانها ، وربما نفعت في الاخلاف ، سيرة الاسلاف ، خصوصاً في أرض لم يكتفوا بأن فتحوها ، بل عمروها وتدبروها . وحكموها واحكموها ، ومدارسة حياة الأجداد ، تربي أخلاق الابناء والاحفاد ، يعيدون فيها حكمة بالغة ، وموعظة حسنة ، والتاريخ يلقن الفكر الجديد ، وينير الطريف بالتليد ، والله وارث الأرض ومن عليها .

صدر الكلام ومصادره

١

وهاك ما رجعت اليه من الكتب والرسائل فى تأليف الفصول التالية ، ومنه تعالى أستمد المعونة ومن الراسخين فى العلم تصحيح ماعساهم يعثرون عليه من الهفوات .

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى «طبع بيروت» (٢) نفح الطيب للمقرى « مصر » (٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشى « ليدن » (٤) قلائد العقيان للفتح بن خاقان « مصر » (٥) مطمح الانفس له « الاستانة » (٦) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى « ليدن » (٧) الاحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب « مصر » (٨) رقم الحلل له « تونس » (٩) الحلل الموشية له « تونس » (١٠) معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار له أيضاً « فاس » (١١) طوق الحمامة فى الألفة والالاف لأبى على بن حزم الأندلسى « ليدن » (١٢) الذخيرة فى شعراء الجزيرة لابن بسام « مخطوط » (١٣) أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر « مونيخ » (١٤) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى « مصر » (١٥) المسالك والممالك لابن حوقل « ليدن » (١٦) أحسن التقاسيم للمقدسى « ليدن »

(١٧) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبى «ليدن» (١٨) تقويم البلدان لأبى الفدا « باريز »(١٩) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم « مجريط » (٢٠) الجزء الثانى والعشرون من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى وفيه أخبار ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بنى أمية الى حين انقراض الدولة العبادية «غرناطة » (٢١) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية «الجزائر» (٢٢) كتاب محمد بن تومرت مهدى الموحدين « الجزائر » (٢٣) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المئة السابعه ببجاية للغبرينى « الجزائر » (٢٤) المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس لابن أبى دينار « تونس » (٢٥) ديوان ابن حمديس الصقلى السرقوسى « رومية » (٢٦) النجوم الزاهرة لابن تغري بردى « ليدن » (٢٧) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق « ليدن » (٢٨) تاريخ المسعودي « باريز » (٢٩) تاريخ الكامل لابن الأثير «مصر» (٣٠) تاريخ ابن خلدون « مصر » (٣١) الحلة السيراء لابن الابار « ليدن » (٣٢) كتاب القضاة بقرطبة للخشنى « مجريط » (٣٣) تكملة التكملة لابن الابار «مجريط» (٣٤) التكملة لكتاب الصلة لابن الابار « الجزائر » (٣٥) صبح الأعشى للقلقشندى « مصر » (٣٦) معجم البلدان لياقوت الحموى « ليبسيك » (٣٧) المكتبة العربية الاندلسية وفيها ستة كتب وهى الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتمس لابن عميرة

الضبي والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وفهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الاشبيلى نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا وريبرا « مجريط » F. Codera et J. Ribera : Bibliotheca Arabico - Hispana (Madrid) (٣٨) المكتبة العربية الصقلية لميشيل آمارى « ليبسيك » M. Amari : Bibliotheca arabo - sicula (Leipzig) (٣٩) محاضرة ابن زيدون لأحمد زكى باشا نشرت فى السنة الثانية من مجلة البيان « مصر » (٤٠) السفر الى المؤتمر لاحمد زكى باشا أيضاً « مصر » (٤١) قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون « ليدن » (٤٢) رسالة ابن زيدون وشرحها للصفدى (٤٣) ترجمة ابن عباد « ليدن » (٤٤) ترجمة ابن زيدون « ليدن » (٤٥) ترجمة ابن عبدون وملوك بنى الأفطس « ليدن » (٤٦) قاموس الاعلام لشمس الدين سامى « تركى طبع الاستانة » (٤٧) مجلة المقتطف (٤٨) مجلة المقتبس « مصر والشام » (٤٩) دائرة المعارف الاسلامية « ليدن » Encyclopédie de l' Islam, Leyde (٥٠) تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزى « باريز » Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, Paris (٥١) التاريخ العام للأفيس ورامبو « باريز » Lauisse et Rambaud : Histoire générale, Paris (٥٢) تاريخ العرب

J. Conde : « والمغاربة فى اسـبانيا والبرتقال لـكونده « باريز
Histoire de la domination des Arabes et des Maures
en Espagne et en Portugal, Paris (٥٣) تاريخ العرب
Sedillot : Histoire générale : « العـام لسيديليو « باريز
des Arabes, Paris (٥٤) تاريخ العرب لهوار « باريز »
C. Huart : Histoire des Arabes. Paris (٥٥) عجالة فى تحليل
Fouillée : Essai « نفوس الشعوب الأوربية لفوليه « باريز
d'une psy - chologie des peuples européens. Paris
(٥٦) المخطوطات العربية فى الاسكوريال لهارتويغ دارنبورغ
Hartiwig Derenbourg : Les manuscrits arabes (باريز)
de l' Escurial, Paris (٥٧) الصنائع فى اسـبانيا لـكوميز
Gòmez - Moreno: El arte en Espana « مورينو « مجريط
«Madrid» (٥٨) الـكتابات العربية في غرناطة لاميليو لافوانتى
Emilio Lafuente y alcàntrara : « أي الـكنترارا « مجريط
Inscriptiones arabes de Grenada «Madrid» (٥٩) دليل
Baedeker : Espagne « اسبانيا والبرتقال لبيدكر « ليبسيك
et Portugal, Leipzig (٦٠) بحث وصفى لمصانع العرب تأليف
Raphahèl Contreras : Etudes«رافائيل كونترووراس«مجريط
descriptives des monuments arabes. Madrid (٦١)تاريخ
Salomon Reinach ; « الأديان العام لسلمون ريناخ « باريز

(٦٢) اسبانيا — Histoire générale des religions. Paris
فى القرن العشرين لمارفو « باريز » — Marvaud : L' Espagne au
(٦٣) الاسبانيون والبرتقاليون فى بلادهم — XXe siècle. Paris
لكيلاردى « باريز » — Quillardet : Espagnols et Portugais
(٦٤) اسبانيا والبرتقال مصورتان « باريز » — chez eux. Paris
(٦٥) دائرة — L' Espagne et le Portugal illustrés. Paris
المعارف الافرنسية الكبرى « باريز » — La grande encyclopédie
(٦٦) معجم لاروس المصور « باريز » — française, Paris
(٦٧) بحث فى حياة — Nouveau Larousse illustré, Paris
ابن زيدون لاوغست كور « الجزائر » — Auguste Cour : Ibn
(٦٨) تعليم اللغة العربية فى اسبانيا لميكائيل آسين — Zaidoùn, Alger
بلاسيوس « الجزائر » — M. Asin Palacios : l'enseignement
(٦٩) معجم الكل فى واحد — de l'arabe en Espagne. Alger
أوموسوعات العلوم البشرية — Tout en un: Encyclopédie des
(٧٠) دستور فى الصنائع الاسلامية — connaissances humaines
لسالادين وميجون — Saladin et Migeon : Manuel d'art
(٧١) معجم الالفاظ الاسبانية والبرتقالية المشتقة — musulman
من العربية لانجلمان « ليدن » — Engelmann: Glossaire des mots
espagnols et portugais dérivés de l'Arabe. Leyde
(٧٢) معجم الالفاظ الاسبانية العربية لريتواجن « مادريد »
Rittwagen : De Filologia Hispano Arabica «Madrid»

تحية الاندلس

٢

عشقتها ولم تسعدنى الايام بامتاع النظر فى جمالها ، واستطلعت طلع أخبارها ، فروى الرواة عنها عجائب اقلها مما يستهوى النفوس المتمردة ، ويأخذ بمجامع القلوب الجافة العاصية ، تفردت بين بنات جيلها بما خصت به من معانى الحسن والاحسان ، فكثر الخطاب والطلاب . وهى لا تفتأ تبدى لمن أمَّ حماها صنوفاً من اللطف والظرف ، وتخاطب البعيد والقريب بثغر باسم . وترشقهم بنظرات ، لا تخلو من غمزات . تريد بها الهزوء بنكبات الزمان ، والاستخفاف بسخافة الانسان .

عشقتها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته الباصرة من وصف سجاياها وحملته الى البصيرة ففكرت فيه ، وتدبرت خوافيه وحواشيه ، وزادنى غراماً بها ما سمعت من أن أناساً قبلى أصيبوا بما أصبت به ، وعدوا النزول فى حماها ولو ساعة سعادة العمر ، وحسنة الدهر : العشق فنون وعشقى كان لأرض الاندلس عليها من كل عربى ألف ألف سلام ، على مر العصور والأيام .

عشقتها لكثرة ماتلوت من آثار من درجوا على أديمها من

أبنائها وغير أبنائها ، وكانت المخيلة تتصورها فى مظاهر صح بعضها يوم اللقاء ، وآخر كان بالطبع كالخيال ، فى الاندلس تم نحو نصف مدنية العرب الباهرة ، وقضوا فى أرجائها نحو ثمانية قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة ، ودور ظهور النوابغ وأرباب الابداع والقرائح ، وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثة على كثرة ما اقتبست وأوجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا ان تبلغ مكانة الاندلس ، فكان هذا الصقع فى منقطع أرض المغرب ، وآخر أرض العرب ، بين البحرين المحيط والمتوسط برهاناً أزلياً على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات ، وناعياً على من أنكروا لافراطهم فى الشعوبية فضل هذه الأمة على الحضارة ·

أقام الغربيون ضروبا من المصانع من بيع وأديار ومتاحف ومكاتب ومدارس وجسور وسدود وطرق ومعابر وتماثيل ونصب وبرك ، لكنهم لم يصنعوا على كثرة تفننهم فى هذا الشأن ، منذ عهد اليونان والرومان ، طرزاً من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول ، وينظر اليك فيعمل فى شغاف قلبك ولا عين له فتنتظر ، ويطربك بتساوق نغماته من دون ماصناجة ولا وتر ولا ألحان . مصانع كثيرة بقيت بقاياها فى طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة سلبتها الفتن والجهل تارة شطراً من بهائها ، وسالمتها حيناً فابقت عليها ، أو رممت شيئاً مما أضرت به عوامل الايام وان لم تعد اليها نضرتها الأولى .

سلام على أرض طيبة خصها الخالق باجمل الهبات الطبيعية الطيبة ، فلم ينقصها زكاء تربة فى نجادها ووهادها ، ولا مياهاً عذبة دافقة من هضابها على شعابها ، ولا أشجاراً باسقة وزروعاً خصبة فى سهلها ووعرها ؛ ولا اعتدال مواسم وجمال اقليم ، ومصحة أبدان زانها الصانع السماوى بايجاده كما زانها الصانع الأرضى بابداعه ، وما أجمل الطبيعى والصناعى ، اذا تواعدا الى الاجتماع فى خير البقاع .

ليالى الأنس ، فى جزيرة الاندلس ، وأيامها الغر ، فى سالف الدهر ؛ فيك قامت سوق الآداب . بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الاحقاب ، وكمل فى ربوعك الذوق العربى حتى ظن بعضهم انك نسيت كل شىء ماعدا الأدب ، وما هذه الآثار الأبدية الاثمرة علمك وصناعاتك وزراعاتك : سلام على أرواح علمائك وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ما كان أرجح أحلامهم ، يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى ، حملوا فأجملوا من الشرق الى الغرب تعاليم فى الدين والدنيا كانت صفوة العقول الى عهدهم فادهشوا من عاصرهم ، وخلفهم من الاجيال ، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلا رقت حواشيه ، ونظاماً متقناً فى حكم الانسان للانسان ، يطبع فى تاليه اذا تدبره ، طبيعة حسن الذوق والطبع ، وينشئه على أرق مثال من الخيال فى الكمال

والجمال . مثال حي من حضارة العرب فى القارة الأوربية عامة ، وفى شبه جزيرة اسبانيا خاصة ، يفتخر به العرب على اختلاف أصقاعهم وحق لهم الفخر ، لأن الأندلس العربية الاسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحى ، نزل طلابه فى قرونهم المظلمة على علماء العرب فأوسعوهم من مكارم أخلاقهم ، وأكرموا مثواهم بما علموهم ، وما أسخى العربي على طالب قراه ، والمعتصم بحماه ، فلما جاء دور الانحطاط ، وازف رحيل ذاك الرعيل ، من أرض كان الغرب كله يعدهم فيها أثقل دخيل ، أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم معلمة لهم معانى ليست فى معاجم نفائسهم ، ومكذبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس ، ويغمط الحق لصاحبه ، ويستهويه الغرض ، فيشوه وجه الحق الجميل .

الى اليوم لم يزل فى الغربيين أناس يصعب عليهم الاعتراف بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيمة ، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمة فى كتبهم دع كتبها من أعمال هذه الحضارة الغريبة ، وما ذاك الأثر الضئيل الباقي من عاديات الاندلس العربية ، الا برهان جلى على ما كان هناك من عدل شامل ، وعقل كامل ، ونظر نافذ ، ويد صناع ، أربت على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والاصقاع

٣

أخذت العرب اسم الاندلس من اسم سكانها الأصليين الفانداليس Vandales فقالوا فاندالسيا أو فاندالوزيا Vandalitia أو Vandalusia وأطلقوا عليها اسم الجزيرة من باب التغليب فقالوا جزيرة الاندلس كما قالوا جزيرة العرب وما هى فى الحقيقة الا شبه جزيرة لاتصالها من أقصى الشمال بجبال البيرنات أوالثنايا كما كان يعرفها العرب ، قدروا القسم الجنوبي من شبه جزيرة فانداليس أو أبيريا أو اسبانيا بمسيرة ثلاثين يوماً طولا وزهاء عشرين يوماً عرضاً يحدها البحر من أطرافها الأربعة الا من الشمال الشرق . وميزان وصف الاندلس كما قال ابن سعيد : انها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جانب .

والاندلس فى عرف أهلها اليوم عبارة عن ثمانى ولايات ولاية المرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطة وولاية حولفا؟ وولاية جيان وولاية مالقة وولاية أشبيلية ومساحتها السطحية ٨٦٦٨٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها زهاء أربعة ملايين فهي نحو خمس اسبانيا الحالية بسكانها ونحو سدسها بمساحتها السطحية . هذا ما يطلق عليه اليوم اسم الاندلس بيد ان حكم العرب تجاوز

ذلك الى برشلونة وما وراءها من الشرق والى لشبونة وما جاورها فى الغرب ولم يبق فى أيدي الاسبانيين والبرتقاليين من هذه الجزيرة التى تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون وأربعة آلاف كيلومتر مربع سوى أراض مصخرة ضئيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلالقة وآستوريا .

فالعرب لم يملكوا اذاً الجزيرة باسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها ولذلك لاتعرف مساحة الاندلس العربية على التحقيق . ويقول المسعودى ان مسيرة عمائر الاندلس ومدنه نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة وقال غيره ان فى أرض الاندلس العامر والغامر فكانت من ثم مساحة الاندلس تختلف بحسب تغلب العرب على أعدائهم أو تغلب أعدائهم عليهم وكم من الاقاليم والمدن فى الشمال والغرب والشرق دخلت مرات فى حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها لعبد الرحمن بن معاوية فى القرن الثانى ثلاثمائة فرسخ فى ثمانين ثم صغرت فى القرن الثامن حتى أصبحت — كما وصفها العمرى — كمفحص القطاة ضيقاً ، ومدرج النمل طريقاً .

لاجرم أن مقام العرب فى الاندلس كان غير طبيعى لمجاورتها لأمم قوية الشكيمة مخالفة لها فى الجنس واللسان والدين حتى ان عمر بن عبدالعزيز لماولى السمح بن ملك عليها أمره أن يكتب اليه بصفتها وأنهارها وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن

المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وصف المراكشي ما كان فى أيدي الاسبان والبرتقال من أرض الاندلس سنة ٦٢١ هـ فقال أول المدن فى الحد الجنوبي الشرقى على ساحل البحر الرومى مدينة برشنونة (برشلونة) ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرطوشة والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافراغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشنونة وهى الجهة التى تسمى ارغن . وفى الحد المتوسط ما بين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة واقليج وطلبيرة ومكادة ومشريط (مجريط ؟) ووبذوايلة وشقوبية هذه كلها يملكها الادفنش وتسمى هذه الجهة قشتال . وتجاور هذه المملكة فيما يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهى سمورة وشلمنكة والسبطاط وقلمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج وتسمى هذه الجهة ليون . وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البحر الأعظم اقيانس مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنترة وشنتياقو ويابرة ومدن كثيرة يملكها رجل يعرف بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلى بلاد الروم مدن كثيرة ثم ذكر ما يملكه المسلمون لعهده من الاندلس فاورد حصن بنشكلة وطرطوشة وبلنسية وشاطبة وجزيرة الشقر ودانية ومرسية وغرناطة وحصون لرقة وبلش وقلية وبسطة ووادى آش والمرية

وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء .

وقوّم القلقشندى الاندلس فى المئة الثامنة فقال ان الاندلس أقامت بأيدى المسلمين الى رأس الثمانمائة سنة من الهجرة ولم يبق منها بيد المسلمين الا غرناطة وما معها من شرق الاندلس عرض ثلاثة أيام فى طول عشرة أيام وباقى الجزيرة على سعتها بيد نصارى الفرنج وان المستولى على ذلك منهم أربعة ملوك الاول صاحب طليطلة وما معها ولقبه الادفونش سمة على كل من ملك منهم وعامة المغاربة يسمونه الفنس وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طليطلة وقشتالة واشبيلية و بلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر أعمالها . الثانى صاحب لشبونة وما معها وتسمى البرتقال ومملكته صغيرة واقعة فى الجانب الغربى وهى تشتمل على لشبونة وغرب الاندلس . الثالث صاحب برشلونة وارغن وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة . الرابع بيرة وهى بين عمالات قشتالة وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونه ويقال لملكها ملك البشكنس .

هذا فى الجملة تقويم الاندلس فى القديم وكلما توغلت فى سمت الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وترامى المسافات وهى اليوم فى الخطوط الحديدية سهلة فى الجملة فاذا جئت من مدينة باريز وهو الطريق الذي سلكناه تصل الى مجريط فى ست وعشرين ساعة وهى ١٤٥٥ كيلومتراً ومن مجريط الى قرطبة ٤٤٢ كيلومتراً ومن

قرطبة الى اشبيلية ١٣١ كيلومتراً ومن غرناطة الى جبل طارق ٣٠١ كيلومتر ويتأتى اختصار هذه المسافات اذا كانت القطر تقصد الى البلد مباشرة بدون تنقل أو تعاريج ولكن تقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات .

فتح الاندلس

٤

لما فتح موسى بن نصير مولى بنى أمية أفريقية وما حولها أى تونس وما وراءها سنة ثمان وسبعين للهجرة وبلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ماحولها . وكان يليان أحد ملوك الاندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه فى تلك البلاد بعث بالطاعة لموسى ، وأقبل به حتى أدخله المدائن بعد أن اعتقد لنفسه ولاصحابه عهداً رضيه ، واطمأن اليه ، ثم وصف له الاندلس ودعاه اليها فبعث رجلا من مواليه يقال له طريف فى أربعمائة رجل ومعهم مائة فارس فسار فى أربعة مراكب حتى نزل جزيرة سميت به لنزوله فيها ، وكانت هذه الجزيرة معبر مراكبهم ودار صناعتهم ، فاغار على

الجزيرة فأصاب شيئاً ورجع سالماً وذلك سنة احدى وتسعين . ثم دعا موسى مولي له يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين . جلهم من البربر والموالى ليس فيهم عرب الا قليل ، فدخل فى تلك السفن الاربع فى سنة اثنتين وتسعين وأخذت السفن الأربع تختلف بالرجال والخيل وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله وسمى به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافى جميع أصحابه .

ولما بلغت ملك الاندلس رذريق صاحب طليطلة غارة طريف على الاندلس جمع جموعه قيل مائة ألف أوشبه ذلك فبعث موسى على سفن كثيرة ، كان عملها بخمسة آلاف مقاتل فتوافى المسلمون بالاندلس عند طارق اثنى عشر ألفاً ومعهم يليان فى جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، فالتقى رذريق صاحب طليطلة وطارق بن زياد بموضع يقال له البحيرة فانهزم رذريق ثم مضى طارق الى مضيق الجزيرة فمدينة استجة ؛ وحارب فل العسكر الأعظم وهزمه ثم ورد طارق عيناً من مدينة استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت العين عين طارق ، وفرق جيشه فأرسل فرقة الى قرطبة ، وأخرى الى رية ، وثالثة الى غرناطة وسار هو فى عظم الناس يريد طليطلة . ففتحت كلها وكذلك مدينة تدمير ، وأسر أحد ملوك الاندلس ومنهم من اعتقد على نفسه اماناً ، ومنهم من هرب الى جليقية فى الشمال . ثم سار طارق حتى

بلغ طليطلة ، وخلى بها رجالا من أصحابه ، فسلك الى وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق .

وفى سنة ثلث وتسعين دخل موسى بن نصير فى ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر وقد بلغه ما صنعه طارق بن زياد فحسده وخشى أن ينال شرف الفتح دونه أمام الخليفة من بنى أميـة . فلم يلبث ان فتح من المدن مالم يفتحه طارق مولاه فافتتح مدينة شذونة وقرمونة واشبيلية وحاصر هـذه أشهراً فهرب أهلها الى مدينة باجة فمضى موسى الى مدينة ماردة وقاتلهم عليها أشهراً فصالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها له ثم افتتح سرقسطة ومدائنها .

ذكروا أن المسلمين انتهوا الى مدينة لوطون قاعدة الافرنج ؛ ولم يبق لاهل الاسـلام شىء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك الا جبال قرقوشة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية ، فاما الصخرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية الا ثلثمائة رجل تلفوا بالموت والجوع والحصار فلما لم يبق منهم الا ثلثمائة رجل ورأى ذلك المرتبون على حصارهم استقلوهم فتركوهم فلم يزالوا يزدادون حتى كانوا سبب اخراج المسلمين من جليقية وهى فشتيالة .

هذه زبدة مما قاله المؤرخون فى فتح الاندلس ولا شك أن قرب سواحلها من شواطىء أفريقية قد ساعد العرب كثيراً على

هذا الفتح فان المجاز أو الزقاق كما كان يسميه العرب بين البرين بر العدوة (١) وبر الاندلس قريب جداً يسهل معـه نقل الذخائر والجيش من أفريقية وذلك لأن الزقاق فى موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الاندلس يقابل قصر مصمودة بازاء سلافى الغرب الاقصى وعرضه اثنا عشر ميلا ومن الجزيرة الخضراء فى الاندلس الى مدينة سبتة ثمانية عشر ميلا . والباخرة تقطع المسافة اليوم من الجزيرة الخضراء أو جبل طارق الى طنجة فرضة الغرب الأقصى فى نحو ثلاث ساعات .

وأنت ترى ان معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا استصفوا الاندلس فى مدة وجيزة ، وذلك لأن الاختلاط القديم المستحكم للجوار بين أهل الاندلس وبين أهـل شمالي أفريقيـة وتغلب الاندلسيين أحياناً على بلاد البربر أى الغرب الأقصى والأوسط ، قد هيأ لسكان البـلاد بل لقوادها وحكامها من العرب أن يعرفوا معالم الاندلس ومجاهلها ، ويقفوا على مواطن الضعف من حكوماتها ؛ فقد جاؤوها والاختلاف بين ملوكها

(١) العدوة بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الاندلس من شمالى افريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدوة المغرب الاقصى والاوسط والادنى أى مراكش والجزائر وتونس . وقال صاحب التاج وبر العدوة بالاندلس واليه نسب شهاب الدين بن ادريس العدوى عن قاسم بن اصبغ قيده الرشاطى . ولعل العدوة هذه بلدة من بلاد الاندلس ليست مشهورة والمشهورة ان العدوة كما قلنا وايده علماء الجغرافيا من العرب .

على أشده والبلاد قد جاعت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة ثمان وثمانين الى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر . واذا صح ان الملك الاعظم فى طليطلة جيش على العرب مئة ألف مقاتل وهو مستبعد فان جيش موسى بن نصير البالغ اثنى عشر ألفاً قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من الاضطلاع بأمور الحرب هذا وأهل البلاد كانوا فى الجملة يريدون الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فانهم كانوا قبل بضع سنين قد ذاقوا الامرين من حكوماتهم ومواطنيهم المسيحيين فلما جاء العرب الفاتحون كانوا أدلاءهم وأكبر ردء لهم لعلمهم بأنه ينفس خناقهم بالفاتحين . وكان المسلمون كلما دخلوا بلداً جعلوا نصف حاميته من اليهود والنصف الآخر منهم . ثقة فى ابناء اسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم فى الاندلس .

تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الاموية فى الشرق وتعاقب عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢ هـ وخطب باسم خلفائهم على منابرها ثم خطب مدة قليلة للعباسين [1] بعد سقوط دولة

---

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية لنفسه عند استفلاط امره واستيلائه على دار الامارة قرطبة ويقال انه اقام اشهراً دون السنة يدعو لابى جعفر المنصور متقيلاً فى ذلك يوسف الفهرى الوالى قبله الى ان افرد نفسه بالدعاء . ويقال ان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم اشار عليه بذلك عند خلوصه اليه فقبله الا انه لم يعد اسم الامارة وسلك الامراء من ولده سنته فى ذلك الى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذى تسمى بالخلافة بعد سنين من

الأمويين بالمشرق حتى اذا كانت سنة ١٣٨ جاء من الشرق هارباً عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسمى بالداخل فتغلب بواسطة جماعة من أهل بيته وموالى آل مروان وبما له من العصبية فى قبائل زناتة أخواله ، وكانت والدته منهم حتى استولى على الأندلس ، وبذل أهلها له الطاعة ، فأصلح من شأنها ورفع وأبناؤه وأحفاده من بعده شأن خلافتهم هناك وأجمعت القلوب على حبهم وقل المنتقضون على ملكهم المتوثبون على سلطانهم ، ولقد أنصف المنصور العباسى عند ما لقب عبد الرحمن الأموى بصقر قريش لانه « عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً ، فمصر الأمصار وجند الاجناد ، ودون الدواوين ، وأقام سلطاناً بعد انقطاعه . بحسن تدبيره وشدة شكيمته »

انقرض ملك بنى مروان من الاندلس سنة ٤٠٧ ه على رأس مائتى سنة وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً بعد ان جمعوا الشمل ، ورأبوا الصدع . وأحيوا المعالم ونشروا العدل ، وخدموا الحضارة ، وكانت أيامهم اعراساً وأفراحاً ، فتفرق الملك بايدى ملوك الطوائف فكان « كل ملك لما بيده فضبط اشراف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، وتنافسوا فى انتحال

سلطانه ودعى بامير المؤمنين لما استفحل امره واستبان له ضعف ولد العباس وانتشار سلطانهم بالمشرق وذلك فى آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن احمد المعتضد منهم ذكر ذلك ابو مروان ابن حيان مؤرخ الاندلس .

الالقاب السلطانية فأتوا من ذلك بكل شنيعة » الى ان قام رأس المرابطين وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين اللمتونى صاحب المغرب الأقصى وأعاد للبلاد مع ابنه على بن يوسف سالف نضارتها ، ودعا للخلافة العباسية على منابر الاندلس ولم تزل الدعوة للعباسيين وذكر خلفائها على سائر الاندلس والمغرب الى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصادمة فى بلاد السوس .

تنفس خناق البلاد بالقوة الجديدة التى جاءت بها دولة المرابطين لشد ازر المسلمين فى الاندلس ، كما عادت اليهم بعض القوة على عهد الموحدين ، وكان هؤلاء لا يتوقفون عن نجدة اخوانهم فى الاندلس ، حتى ان الخليفة المنصور من الموحدين لما دنت وفاته جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله « واوصيكم بالايتام واليتيمة » أراد بالايتام أهل جزيرة الاندلس وباليتيمة بلاد الاندلس ، الا أن أحوال الجزيرة اختلت فى أواخر دولة أمير المسلمين على بن يوسف فأوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم . واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ، وكادت الأندلس تعود الى سيرتها الأولى ، بعد انقطاع دولة بنى أمية فاستدعى عقلاء الجزيرة بنى مرين من بر العدوة فجاءهم أميرها سنة ٦٥٨ فى جيش ضخم فملك بالاندلس ثلاثة

وخمسين مسوراً مابين مدن وحصون وهو اول من ملك العدوتين من بنى مرين وجاهد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبل جوازه الى الاندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الاندلس وأكثر حصونها مثل قرطبة واشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها ولم تنتشر للاسلام راية منذ وقعة العقاب [1] سنة ٦٠٩ الى أن جاءت رايته وكانت الحروب والغزوات متصلة بين العرب وأعدائهم فى القرن الخامس والسادس والسابع وكثيراً مايؤدى ملوك العرب الجزية للافرنج بعد ان كان هؤلاء فى القرن الأول والثانى والثالث والرابع يؤدون الى العرب الجزية . ولما أغلظ ابن تاشفين لا لفونس الكلام فى المكاتبة قال هذا : « بمثل هذه المخاطبة يخاطبنى وأنا وأبى نغرم الجزية لاهل ملته منذ ثمانين سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وأربعمائة »

وبعد ان زال حكم الموحدين من اسبانيا دخلت فى حكم محمد بن يوسف بن هود من بطليوس الى مرسية وقرطبة واشبيلية سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الأحمر من أسرة بنى نصر فاستولى على الاندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه وفى أعقابه نحو قرنين ونصفاً كان الضعف رائد دولتهم أولاً حتى

(١) هذه الوقعة وقعة العقاب هى المعروفة عند الافرنج باسم لاس نافاس دى تولوزا Las Navas de Tolosa وهى قرية من عمل ولاية بيان اشتهرت بانتصار ملوك ارغن وقشتالة ونافار على العرب سنة ١٢١٢ — ٦٠٩ هـ وقد ضربوا العرب ضربة لم يتمكنوا بعدها من التوغل فى بلاد اسبانيا

لقد صالح ابن الأحمر الفنس ملك اسبانيا سنة ٦٦٥ على أن اعطاه نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من الشرق فقال أبو محمد الرندى يرثى الاندلس ويستصرخ أهل العدوة من بنى مرين قصيدته المشهورة التى يقول فيها

دهى الجزيرة خطب لاعزاء له
هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين فى الاسلام فامتحنت
حتى خلت منه أوطان وبلدان
فسل بلنسية ماشأن مرسية
وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شان

وعاد أمر المسلمين فضعف وبنو الأحمر آخر ملوك الأندلس يستصرخون الموحدين من أهل العدوة فينجدونهم حتى رسخت أقدام الملوك من بني الاحمر أو بنى نصر فى بقعة صغيرة من البلاد جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنو الاحمر على قوتهم فى حماية سلطانهم حتى ضعف أمرهم وصحت نية الاسبان على اخراجهم من شبه جزيرة اسبانيا باتفاق ايزبيلا الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك ارغن وقشتالة ونافار تحت سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بنى الأحمر من بلاد الاندلس سنة ٨٩٧ هـ ويومئذ انتهى حكم العرب هناك .

عمران الاندلس

٥

في أرض اندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيهـا القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحق الانس صهباء
وان يعدل عن ارض يحض بها على الشهادة ازواج وابناء
واين يعدل عن أرض تحث بها على المـدامة امواه وافياء
وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها وكل روض بهـا في الوشي صنعاء
انارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ولا انتثار لآلى الطل انداء
وانما أرج الند استثار بها في ماء ورد فطابت منه ارجاء
واين يبلغ منها ما أصنفه وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت فريدة وتولى ميزها المـاء
دارت عليها نطاقا ابحر خفقت وجداً بها أو تبدت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهي الرياض وكل الارض صحراء

« ابن سفر المريني »

كانت شبه جزيرة اسبانيا فى عمرانها قبل الفتح العربي منحطة عن عامة الممالك الاوربية . حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد بنياناً . واقام فى المعمور عمرانا ، ومع هذا لم ينلها من عنايتهم كبير أمر ، فلما جاء العرب الفاتحون فى العقد الاخير من المئة الاولى ، كان عهدهم الاول عهد الفتوح على نحو ما كان عهدهم فى الشام ، فلما التفتوا فيه الى تجويد البناء حتى اذا ورد على الاندلس من الشرق بل من دمشق عبد الرحمن الداخل الاموى سنة ١٣٨ ه نقل مع جماعته أسلوب أمته فى العمران ، وكان سبقه اليها جمهور من الشاميين ، نقلوا أسلوب بنائهم وعاداتهم وأصول معايشهم ، فاعتمدوا فى بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية فى الغالب ، وجعلوا فى الدور فناء أو صحناً فى وسطه بركة ماء وعلى جانبيها الازهار والاشجار ، وتقوم بعض طنوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام وغيره ، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية للصيف والطبقة العلوية للشتاء ويدخل الى الدار من دهليز . رسم خطط هذه الدور بادئ بدء مهندسون من الروم ثم أصبحت مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم فى الشام .

يقول بعضهم أن العرب لما وصلوا اسبانيا لم يكن لهم هندسة مخصوصة فقل فيهم كالاسبانيين الابداع والايجاد ولكنهم تفننوا فى النقش . واقدم مصانعهم مسجد قرطبة ، انشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٥ م والنقوش فيه والفسيفساء من عمل صناع من

الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت فى المساجد والبيع والقصور والحمامات والابراج والابواب الحصينة . ومن اغرب المبانى مسجد طليطلة مثال الهندسة العربية وقاعدة منارة مسجد اشبيلية وكثير من الارتجة والابواب . ولما استولى الاسبان على اشبيلية جعل ابن الاحمر غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء وظهرت بدائعه ، وهو أجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التى تفتقت اكمامها بايدى العرب . وظل صناع العرب فى اسبانيا قروناً بعد ذهاب دولتهم يعملون فى المصانع الاسبانية و يدخلون فى هندستها بعض أساليبهم فاثروا بها تأثيراً عظيما فى المعاهد المبنية على الاسلوب القوطي والايطالى (الرنيسانس) .

ولقد كان لملوك الاندلس وامرائها وقوادها وعامة من تولوا خطط الحكم والقضاء والحسبة ، غرام باستكمال فخامة الملك ، وتشييد القصور ، وجلب المياه وبناء الارصفة ، واقامة القلاع والحصون . بدأ بذلك عبد الرحمن الاول وجرى آل بيته وعظماء مملكته ، على قدمه في هذا الشأن ، ومنهم عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨) الذي كان « أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل ، وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور ، وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس ، وعمل السقاية على الرصيف ، وأحدث الطرز . واستنبط عملها ، واتخذ السكة بقرطبة ، ونجم

ملكه ، وفى أيامه دخل الاندلس نفيس الوطا وغرائب الاشياء .
ومنهم عبدالرحمن ابن محمد الذى قال فيه صاحب العقد : « ان الملوك لم تزل تبنى على أقدارها ويقضى عليها بآثارها وانه بنى فى المدة القليلة ، مالم تبن الخلفاء فى المدة الطويلة ، نعم لم يبق فى القصر الذى فيه مصانع أجداده ، ومعالم أوليته ، بنية الا وله فيها أثر محدث ، أما تزييد أو تجديد

كانت البلاد نسقاً واحداً فى العمران حتى كان للقرى أيضاً نصيب وافر من العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا انه كان على الوادى الكبير فقط أربعة عشر ألف قرية فكنت على رواية ابن سعيد اذا سافرت من مدينة الى مدينة ، لا تكاد تنقطع من العمارة ؛ مابين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، أى فى القسم الذى تأصل فيه حكم العرب . ومما اختصت به ان قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها بل هى طراز من مناظر قد أتقنت بالبياض والزخرفة تخطف بالابصار عند وقوع شعاع الشمس عليها .

لاحت قراها بين خضرة ايكها   كالدر بين زبرجد مكنون

قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان ، ولما ابتنى عبد الرحمن بن محمد فى غربي قرطبة مدينة الزهراء خط فيها الاسواق وابتنى الحمامات والخانات ، والقصور والمتنزهات ، واجتلب الى ذلك بناء العامة ، وأمر مناديه بالنداء ،

الا من أراد أن يبنى داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله اربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء والمسافة أربعة أميال .

كان بناء الاندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم أنواعاً منه الخمرى والأحمر والأبيض والمجزع وكانوا ينحتون السوارى والعمد من مقالعهم على الأغلب . وقيل ان سوارى جامع قرطبة جلبت من البيع القديمة من جنوبى فرنسا وايطاليا ومن أفريقية والاستانة وسواء قطعت من مقالع الاندلس ، أو جلبت من القاصية ، فان فى ذلك فضلا كبيراً للعرب ، يدل على معرفتهم الأشياء الحسنة ، وقدرتهم على حمل هذه الاثقال فى البر والبحر ، مع قلة الآلات الرافعة . وقصور علم الحيل عما هو عليه فى عصرنا

قال أحد الباحثين من الفرنجة : فى اسبانيا ميدان لدرس الصناعة العربية المغربية منذ بدايتها وكان التردد بادىء بدىء بادياً عليها الى أن ظهرت فى مظهرها هذا على غاية من الغرابة والظرف . وقال بعضهم ان الهندسة العربية قد أفرغت جهدها فى قصور الحمراء ، وأتت ماوسعتها الاجادة والظرف بأمثلة ، تأخذ بمجامع القلوب فى العمران ، ولو لم يكن جل الاعتماد على الخشب والجص فى البناء ، وهما مما تقل متانته ، لاتت منها آثار خالدة أكثر مما أتت ، ولكن مجموعها مدهش غريب يمجد خيمة العرب

الرحل فى البادية . ومن أغرب ماصطنعوه عمل المقرنص فى القباب مؤلفاً من عدة قباب صغرى متماسقة ، بدون أن ترى اللحمة بينها ، والنقش فيها قليل الا ما كان من جمل نقشت بالحروف الكوفية أو العربيـة المشبكة الاندلسية

قلنا ومعظم الآثار التى بناها الاسبان بعد سقوط آخر دولة الاندلس كانت بأيدى صناع من العرب ، أبقوا عليهم لقيام مصانعهم ، وذلك لان الاسبان كانوا متأخرين فى الهندسة والصنائع النفيسة ، وأهم مايتنافس فيه الاسبان الى اليوم القيشاني فانك تراه فى كل بيت وكنيسة ، وحائط ونزل ومدرسة ومتحف ، وهو أنواع منه مايجعل على الأرض ، ومنه ما يجعل على طول قامة الانسان فى الجدران المختلفة ، وللآجر عندهم شأن عظيم فى البناء . وقد يدم قروناً كما شاهدنا ذلك فى خرائب الفسطاط بمصر وأكثره من بناء القرن الاول للهجرة

يصعب تعداد المصانع التى شاهدها العرب فى أوقات مختلفة ، فى الاصقاع التى نزلوها ، كما يصعب اعطاء حكم تام على معالمهم ، لان كثيراً من بنيان الاندلس عورَ بتداول الايام . فصح فى مدنها ودساكرها قول أحد الاندلسيين فى بلنسية وقد عاث العدو فيها

عاثت بساحتك الظبا يادار ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

أهل الاندلس

٦

كان الجيش الذى فتح الاندلس بادىء بدء مؤلفاً من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الأقصى والأوسط وما اليهما. نزل كل فريق منهم في بقعة فاعمرها وأقطعهم القواد مارحل عنه أهله من المزارع والمداشر. وقدفرق الحسام ابن ضرار الذى ولى امارة الاندلس فى سنة ١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد، وأبعدهم عن دار الأمارة قرطبة، اذ كانت لاتحملهم وأنزلهم مع العرب البلديين أى السابقين الى الاندلس، فى سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة. والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥ انزلهم على شبه منازلهم فى كور شامهم، وتوسع لهم فى البلاد، فانزل فى كورتى اكشونبة وباجة جند مصر مع البلديين الأول، وأنزل باقيهم فى كورة تدمير وانزل فى كورتي لبلة واشبيلية جند حمص مع الأول أيضاً، وانزل فى كورتى شدونة والجزيرة جند فلسطين وانزل فى كورة ريه جند الاردن، وانزل فى كورة البيرة جند دمشق، وأنزل فى كورة جيان جند قنسرين أى حلب، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة. وبقى العرب البلديون من الجند الأول على مابأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم فى شيء منها فلما رأوا بلاداً شبه بلادهم خصباً وتوسعة، سكنوا واغتبطوا وتمولوا.

قال ابن الخطيب أنزلوا القبائل الشامية فى كوَر على شبه منازلهم التى كانت فى كوَر شامهم ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة وبقى العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم وسكنوا واغتبطوا ، وكبروا وتمولوا ، الا من كان نزل منهم لاول قدومه موضعاً رخياً ، فانه لم يرتحل وسكن به مع البلديين . وحكى غيره انه نزل فى البيرة من كان قدمها من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وافناء قبائل العرب ، ونزل رية جند الاردن وهم يمن كلهم من سائر البطون ، ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن وفيهم من نزار نفريسير ، ونزل مدينة الجزيرة البربر واخلاط من العرب قليل . ونزل في جيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معد واليمن ، ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية .

وما عدا قبائل العرب والبربر الذين تفرقوا فى بلاد الاندلس على ما رأيت كان فيها أخلاط من الشعوب من رومان وغوط ومهاجرة من أقطار شتى فامتزجوا كلهم فى بودقة واحدة . قال هوار : ولما أصبح عبد الرحمن ملكا على جميع اسبانيا الاسلامية (٣٢٠ — ٩٣٢) استند لقتال طبقة الاشراف من نسل العرب المهاجرين على الاسبانيين الذين دانوا بالاسلام وعلى كثير من الاسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك الى جعل الكل أمة واحدة عرفت فى الشرق باسم الاندلس

ولقد استمرت قبائل العرب الشاميين « فى غمار من الروم يعالجون فلاحة الارض وعمران القرى برأسهم أشياخ من أهل دينهم، أولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم » فاحتفظ العرب بسكان البلاد الاصليين ،وهيأوا السبل لدخول المهاجرين اليها من المسلمين على اختلاف عناصرهم ومن غيرهم ، فأسلم كثير من أهل البلاد ، واختلطت أنسابهم بأنساب العرب، وكان المغلوبون يقلدون الغالبين لاول الامر فى مناحيهم وعاداتهم، شأن المغلوب مع الغالب ، قال فوليه : بعد ان حكم العرب اسبانيا قروناً دخلتها كمية وافرة من الدم الافريقى فكان ذلك من موجبات ارتقاء العقل فى اسبانيا .ومزج الدم الاسبانى بالدم العربى هو ولا شك من جملة الاسباب التى تحمل بالاسبان على اختلاف أصقاعهم الى الطموح الى العظائم ومراتب الشرف اه .

ولما دب الضعف فى الاندلس أصبح العرب يتشبهون بجيرانهم من الافرنج . روى المقرى : ان بنى الاحمر كثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم . وذكر ابن خلدون أوائل المئة التاسعة ان أهل الاندلس يتشبهون بأمم الجلالقة « فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم . حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء» فبعد ان كان القشتاليون والجلالقة دع أبناء الأندلس من غير

المسلمين يتشبهون بالعرب أصبح هؤلاء فى أواخر أيامهم يتشبهون بهم ، شأننا اليوم مع أمم الغرب نقلدهم فى أزيائهم ولباسهم وعاداتهم ، ونفسح المجال لكل ماينفقونه علينا من بضائعهم العلمية والاجتماعية، سنة الله فى الضعيف مع القوي .

امتزج المستعربة Les mozarabes أو المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية فى الاندلس ، بالقادمين عليها فلقى المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين اللهم الا فى الادوار التى كانوا يكيدون فيها للمسلمين ، ويخرجون عن الذمة فان الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم ، وقد أجاز منهم يوسف بن تاشفين الى بر العدوة «عدداً جماً ، أنكرتهم الاهواء ، وأكلتهم الطرق ، وتفرقوا شذر مذر » على انه لم يقع شيء من هذا القبيل الا فى النادر لان العرب كانوا يحرصون على بقاء أهل البلاد فيها ليعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم أو يعطى الجزية ويتعلم العربية فتخف الفوارق بينه وبين أهل عصبية الفاتح .

فمن ثم ساغ لنا أن نقول ان أهل الاندلس لم يكونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صاحب فرحة الانفس : أهل الاندلس عرب فى الانساب، والعزة والانفة وعلو الهمم ، وفصاحة الالسن ، وطيب النفوس ، وأباء الضيم ، وقلة احتمال الذل . والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية هنديون فى أفراط عنايتهم بالعلوم . وحبهم فيها وضبطهم

لهاوروايتهم ، بغــداديون فى نظافتهم وظرفهم ، ورقة أخــلاقهم ونباهتهــم وذكائهم ، وحسن نظرهم ، وجودة قرائحهم ، ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ، ونفوذ خواطرهم . يونانيون فى استنباطهم للمياه . ومعاناتهم لضروب الغراسات ،واختيارهم لاجناس الفواكد وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر ، وصنوف الزهر ، فهم أحكم النـاس لاسباب الفلاحة ، وهم اصبر الناس على مطاولة التعب. فى تجويدالاعمال ، ومقاساة النصب فى تحسين الصنائع ، وأحذق الناس بالفروسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب . وقال ابن حزم : ان أهل الاندلس صينيون فى اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركيون فى معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر في مهماتها . وقال ابن بسام : فى جزيرة الاندلس اشراف عرب المشرق افتتحوها . وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقى النسل فيها بكل اقليم ، على عرق كريم .

تسامح العرب

٧

العرب من أكثر الامم تسامحاً مع المخالفين لهم فى المعتقد والجنس واللسان ، ولولا تسامحهم ايام عزهم بالاسلام ، لم تبق بقيـة من الأمم المغـلوبة فى بلادها محتفظة بدينها ولسـانها ومقدساتها ، وذلك لأن الشريعة السمحاء تقضى بالرفق والرحمة ، وعدم التعرض لدين المخالفين وأموالهم خصوصاً اذا كانوا أصحاب دين سماوى ، ولذلك اكتفوا من أهل الاندلس بجزية[1] وتركوا

(١) هذا كتاب الصلح الذى كتبه عبدالعزيز بن موسى بن نصير لتدمير ابن غبدوش (غيدوس) الذى سميت باسمه تدمير اذ كان ملكها ونسخة هذا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش انه نزل على الصلح وان له عهدالله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم الا يقدم له ولا لاحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وانهم لايقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وادى الذى اشترطنا عليه وانه صالح على سبع مدائن أوريواله وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرة وايه ولورقة وانه لا يؤوى لنا آبقاً ولا يؤوى لنا عدواً ولا يخيف لنا آمنا ، ولا يكتم خبر عدو علمه ، وان عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا (شراب من العنب غير مخمر وهو أشبه بالصليبة فى بلاد الشام) وأربعة أقساط خل وقسطى عسل وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشي وحبيب بن أبى عبيدة . . . ابن ميسرة الفهمى وأبو قاسم الهذلى وكتب فى رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة .

لهم حريتهم ، فأعجب بهم مخالفوهم ، لانهم حملوا اليهم سلاماً ، وكفوهم مؤونة فتن كانت عليهم غراماً ، تأتي على الانفس والنفائس . وتدك معالم الامن والامان .

كره العرب التعصب ولا سيما فى الاندلس وعمدوا الى كل تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الاسبانيين والبرتقاليين حتى انهم كانوا (سيديليو) اذا شجرخلاف بين مسلم ومسيحي من الجند ، يعطى الحق غالباً للمسيحى ،وجعلوا ايام الآحاد أيام عطلة ، بدل الجمع . ورخصوا ان يتعبدكل انسان على الصورة التى يراها ، فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب ، حتى لم يكد يشعر هذا الا فى النادر وباغراء رجال الدين ، انه مغلوب على أمره ، فاقد لاستقلاله . واعتمدالامويون فى أكثر أيامهم على جيش من الصقالبة أهل صقلية يشترونهم أويأخذونهم أسرى كما كان يفعل العثمانيون بجيش الانكشارية وصارت لافراد من الصقالبة حظوة عند الملوك والامة حتى ان حبيباً الصقلبى من فتيان الاموية بقرطبة ألف كتاباً تعصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) وربما كانت منزلة الصقالبة بقرطبة منزلة الشعوبية أعداء العرب فى بغداد ولا من ينكر عليهم . ومن أثر التسامح ، شاعت اللغة العربية في كل أرض نزلها العرب . بل لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون ، لان هؤلاء زهدوا

فى اللغة اللاتينية ، ونشأ لهم غرام بالعربية ،فأخذوا يتقنون آدابها ، ويتغنون باشعارها .ويكتبون فيها كأبنائها ، ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها .

وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين ، دع من كانوا فى البلاد التى فتحها العرب من المسيحيين ، يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسى أو أحد رجاله يستخدمون فى الادارات ، وتجرى على سادات الاسبان أحكام الاسلام فيختلطون باشراف العرب ، ومن ظل محتفظاً منهم بدينه نسى مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ، ويقتدى بازيائهم وألسنتهم وعاداتهم ، فى مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم. ومن المسيحيين والاسرائيليين من وزروا فى الاندلس لملوك المسلمين وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان أبوه أوجده اسبانياً فاسلم (١) والمسلمون لا يضنون بشيء على أهل ذمتهم يجرون عليهم الرواتب والارزاق ، كما تجرى على بطانتهم وأهل نحلتهم ويأمنونهم على مصالحهم ، وينتدبونهم فى سفاراتهم . ويطلعونهم على أسرارهم . ويأمنون الاطباء منهم على ارواحهم وحرمهم

وشاع زواج العرب بالاسبانيات والبرتقاليات اللائي كن بجمالهن . أجمل صلة لتمازج الفاتحين بخصومهم ، والتحام القرابات بينهم ، بل أن ملوك المسيحيين على عهد توزع الاندلس بين ملوك الطوائف ، أمسوا يتزوجون من بنات الامراء المسلمين ،فقد تزوج

(١) راجع نبذة فى امتزاح العرب بالعجم فى اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب فى كتاب (السفر الى المؤتمر) .

الفونس السادس بزايدة ابنة أمير أشبيلية ، وعقد مثل هذا الزواج كثيراً . وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتقاليات بالمسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتقاليين آخر أيام الاندلس كثيراً جداً حتى جرى لذلك كلام فى الشروط التى تمت بين الغالب والمغلوب .

ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكلف بلسانهم مثل محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الاندلس (٥٦١) وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٧١٤) ويتشبهون بهم فى الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات .

هذا ما عمله الغالبون المسلمون من العرب مع المسيحيين المغلوبين من الاسبان والبرتقاليين ، أما معاملتهم للاسرائليين فكانت أيضاً مما يدهش له ، فأصبح لهؤلاء فى الاندلس منزلة سامية فى العلم والصنائع والتجارة ، وكانت غرناطة فى القرن العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها .

أصبح أهل البلاد يتكلمون بالاسبانية والبرتقالية والعربية على السواء وأخذوا بعد حين لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية وقد وجد من عقودهم نحو النيف صك من هذا القبيل كتبها المستعربة من الوطنيين الاصليين باللغة العربية ، والعربية كانت لسان القائمين بالدولة الاسلامية ، هجر ما عداها فى جميع الممالك ، فصار استعمال

اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب . هجر الامم لغاتهم وألسنتهم في جميع الامصار والممالك التي خفقت عليها رايات الفاتحين، وصار اللسان العربي لسانهم ، حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها ، وغريبة عنها ، قاله ابن خلدون :

ولذا أتت ثلاثة قرون على بقايا الاسبانيين المتراجعين الى الجبال الشمالية وقد نسيت تقاليد البلاد إلا من استوريا وما اليها من الاصقاع واضطرت الحكومات الصغرى التي اعتصمت في أقصى الشمال أن تصانع وتعاهد وتتعلم من أعدائها ؛ وهم أرقى منها نظاماً ومدنية وحكومات أوربا الكبرى لذاك العهد تطاب رضاها وتتعلم منها وتتلطف معها ، حتى بلغ الامر بعبد الرحمن الثالث الذي أشبه ملكا من ملوك هذا العصر لا ينقاد لاوهام العنصر والدين ، ولا يتوقف في أمر فيه مصلحته ، وتسير سياسته بحسب الاحوال — ان وجد له حلفاء من زعيم البربر إلى ملك ايطاليا الى أمبراطور القسطنطينية وكانت سفراء فرنسا واليونان والالمان تتوارد على قرطبة ؛ وقد وضع هذا الخليفة حداً للحروب بين العرب والاسبانيين والبربر في الاندلس ، وحصن حدود مملكته من ملوك ليون وقشتالة ونافار واستولى باسطوله على غربي البحر المتوسط ، وبسط سلطانه على افريقية الشمالية فكان ميسين [1] العلوم

---

(١) ميسين هو نديم أغسطس قيصر الروماني استعمل نفوذ مولاه لتنشيط الآداب والعلوم فاغدق نعمه على فرجيل وهوراس وبروبروس وأصبحت كلمة ميسين مرادفة لحامي الآداب والعلوم والفنون ومات في السنة الثامنة قبل المسيح .

والفنون وحامى التجارة والصنائع وقد اصبحت اسبانيا العربية على عهده وعهد اخلافه فى القرون الوسطى أكثر البلاد مدنية وحسن ادارة قالته دائرة المعارف الاسلامية .

لاجرم أن خلفاء الاندلس كانوا من التسامح مع الكافة بالمكان الذى يغبطون عليه ، ويجب التنويه به ؛ لانه لم يسبق له نظير فى عصورهم عند الامم الاخرى ؛ فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم أحراراً وبلغت الحال ببعض المتحمسين منهم ؛ ان كانوا يقفون على أبواب الجوامع ليتسقطوا المسلمين بالدعوة الى دينهم ، وكان عبد الرحمن الثانى عزم أن يجمع مجمعاً مقدساً من النصارى برئاسة رئيس أساقفة اشبيلية لقمع عادية التعصب الاسبانى إذ أخذ دعاة الدين المسيحي يسبون الاسلام جهاراً حتى يقتلوا فى سبيل دعوتهم ، وتكتب لهم الشهادة بزعمهم ، ولكن الخليفة مات قبل التئام هذا المؤتمر سنة ٢٣٨

ولطالما ارخى خلفاء الاندلس العنان لخطبائهم ووعاظهم ومؤرخيهم وكتابهم يوسعون المجال لاقلامهم وألسنتهم ، حتى فى أعمال الخلفاء ، ولا يجدون منهم إلا لطفاً وعطفاً ، ذلك ان الناصر كان كلفاً بعمارة الارض ، وإقامة معالمها ، وتكثير مياهها ، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه ، وعزة سلطانه ، وعلو همته ، فانه لما ابتنى الزهراء . واستفرغ

وسعه في تنجيدها واتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، انهمك في ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد الجامع ، فقرعه القاضي منذر ابن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة بخطبة على المنبر امام جمهور المؤمنين ابتدأها بقوله تعالى (اتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين ، وجنات وعيون ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ثم أفضى الى ذكر المشيد ، والاستغراق فى زخرفته ، والسرف فى الانفاق عليه . فجرى فى ذلك طلقاً . وتلا فيه قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم . والله لايهدى القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وأسرف الخطيب فى ترويع الخليفة وتقريعه ، ولم يحسن السياسة فى وعظه ، فاستشاط الخليفة غضباً ، واقسم أن لا يصلى خلف الخطيب الجمعة أبداً فقال له ابنه : وما الذى يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به فزجره أبوه وانتهره وقال : أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك يعزل فى ارضاء نفس ، ناكبة عن الرشد.

ومثال آخر : شنع أحد المؤرخين على أحد الملوك المعاصرين فى الاندلس ، فحنق ابن الملك وهمَّ بقتل المؤرخ ، فلما شعر أبوه

بذلك قال له اليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلته لاكونن أنا المطالب بدمه . تقتله ليعيرنا الناس باننا نقتل مؤرخينا . حتى إذا مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم ، فلما خرج ليلبس ثيابه ، رأى فيها صرة تضم ألف دينار ، ورقعة من الملك يقول فيها : ان الذى أوصل اليك هذه الدراهم وأنت لا تشعر ، قادر ان يرسل اليك من يقتلك فكف غرب لسانك عنا واذا عدت فأرخت ثانياً لا تشنع علينا أعمالنا . قال دوزى اذا قيست حرية العرب بحرية الافرنج تشبه هذه الاستبداد .

ومازال هذا التسامح المحمود حتى انتقل ملك العرب فى الاندلس الى المرابطين والموحدين وكانوا افريقيين لايخلون من شىء من التعصب وليس فيهم تسامح الامويين العرب فتبدلت الحال بعض الشيء ، وذهبت أو كادت طلاوة تلك المدنية التى أقاموها وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها ومخبرها لولا أن قام الملوك من بنى نصر فى غرناطة ، ورأبوا الصدع ، وجبروا الكسر ، وكانوا كلما صغرت رقعة ملكهم . زادت الرقعة الباقية ارتقاء ، فتنتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم ، الى بلاد يرفرف عليها علمهم ، ويزيد ملوكهم تسامحاً مع ذمتهم ومجاوريهم ، وهمة فى تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنهم التى حصنوها بالعدل والاحسان

العرب والاسبان

٨

قال بعضهم لو لم يقم كلوفيس [1] بحروب دينية فى القرن الخامس لتعذر على المسلمين فتح اسبانيا. ونحن نقول لولم يفتح العرب الاندلس ويحمل اليهم عبد الرحمن الأموى مدنية قومه لتأخرت المدنية الحديثة قروناً عن الظهور فى ربوع أوربا [2] وقد أجمع المنصفون أن العرب لولم ينجلوا عن الاندلس لكانت حال اسبانيا اليوم أرقى مما هى بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقد رأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم، وأكلت نوابغه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الدينى، أن تنشأ له نهضة كنهضة ايطاليا فى القرن الخامس عشر تتنقل منها الى أوربا بأسرها .

وان المرء اذا نزل اسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما فى القسم

---

(١) كلوفيس (٤٦٥ — ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ فتح صقع باريز واستخلصه من أيدى الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولاية الاكيتين من الفيزيغوت وغلب الالمان سنة ٤٩٦ والبورغوند سنة ٥٠٠ ودان مع أمته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان أول من وحد بلاد غاليا (فرنسا) فى دينها وسياستها .

(٢) من تاريخ الكنيسة تعريب هنرى جسب قال موسهايم الجرمانى : حق علينا ان نقول ان العرب ولاسيما عرب اسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة فى الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التى نزغت فى أوربا منذ القرن العاشر فصاعدا .

الجنوبى منها أنه فى بلاد عربية لو كان لسان القوم العربية. ويرى كثيراً من السحنات أشبه بوجوه العرب منها بوجوه الامم اللاتينية. وبعض عاداتهم وطبائعهم تنم عن روح عربية على سعى رجال الدين فى نزعها من بينهم . منذ استعاد الاسبان أرض الاندلس أواخر المئة التاسعة . لاجرم أن أربعة قرون ونصفاً لم تكف لان تنزع من القوم ما تأصل فيهم فى ثمانية قرون وتمثلوه وتمثل بهم من مدنية العرب .

ذكر بعضهم أن فى الاندلس أهم آثار اسبانيا ، والاندلس من اسبانيا بمثابة اقليم البروفانس فى جنوبى فرنسا وصقلية من ايطاليا ، وقد جمعت الاندلس جميع المحاسن والغرائب المبعثرة فى طول اسبانيا وعرضها ؛ ولهجة الاندلس ماثلة الى العربية كثيراً والاحتفالات والاخلاق قد حفظت فيها الاساليب العربية .

نعم لا تزال تسمع فى اللغة الاسبانية كثيراً من الألفاظ العربية من أسماء البلاد والأنهر والنواحى وبعض المرافق والمصطلحات . وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هى عربية لا محالة ، ومن الأسماء ما يبدأ ببنى ومنها ما يبدأ بوادى فدخلت مئات من الألفاظ فى اللغة الاسبانية وتأصلت فيها كما دخلت البرتقالية والايطالية والافرنسية لغات الامم اللاتينية ، وهى ظاهرة كل الظهور فى اللغة الاسبانية وأقل منها فى اللغة البرتقالية والى اليوم تسمع بوادى الرامة ووادى الحجارة ووادى

القنال ووادى البياضة ووادى الكبير وقاعة وقليعة والرملة وقصبة وقصر ومدينة وجنة والمدور والبطاقة والقنديل والأنبيق والساقية والمنارة والربض والمسجد والربع والشمسية والفندق والمحراب ومئات غيرها أفردها علماء اللغة منهم بالتأليف.

أخذ الاسبان عن العرب أشياء ظنوها بعدُ من مصطلحات أجدادهم وبنات أفكارهم ، وتأصلت فيهم من حيث يشعرون ولا يشعرون . حدثنى الثقة ان أحد علماء المشرقيات من الاسبان وهو موسيقار يحسن العربية ويطبع الآن كتاباً يثبت فيه بالأدلة التاريخية ان الموسيقى الكنائسية فى القرن الثالث عشر كانت مقتبسة من الموسيقى العربية . ويخيل لمن يسمع الموسيقى الاسبانية والغناء الاسباني ويرى الرقص الاسبانى انها عربية الا قليلا بحيث ساغ لنا أن نقول اذا كان الروسى شرقياً « تأورب » واستغرب فالاسبانى عربي شرقى «تأورب» واستغرب أيضاً

ولا تزال الى اليوم ترى كثيراً من النابهين من الاسبانيين يدعون ان أصلهم عربى يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك من أمارات الشرف والتغنى بذكرى القديم الجميل . وقد رأينا الاسبانيين فى القرن التاسع عشر والعشرين نهضوا نهضة لا بأس بها للبحث عن ماضيهم أو ماضى اسبانيا الاسلامية وصرفوا فى ذلك وقتاً ومالا وتوفر على هذا العمل طائفة منهم حرصوا أجمل حرص على الأخذ من المدنية العربية ليكفروا عن سيئات أجدادهم

الذين عوروا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا أسفارهم وآثارهم.

أذكر مثالين من هذه النهضة يعدان فى الباب الأول من أبواب تسلسل الفكر الراقي والدؤوب المحمود وهو مما يقل الآن فينا بعد أن أورثنا الاسبانيين أخلاقنا وطباعنا واليكم البيان : قال لى الاستاذ الاب آسين بلاسيوس مدرس العربية في جامعة مجريط وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وأنا أنظر خزانة كتبه : جمع أكثر هذه الخزانة أستاذى ريبرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة وأهمها الجزازات « الفيش » التى رتبها طول حياته وفيها أسماء ثلاثين ألف عالم من علماء الاندلس وقد استنسخها البرنس ليونى كايتانى الايطالى صاحب تاريخ الاسلام الكبير لطبعها فى جملة ما يطبع من آثار العرب . قال : لما كنت فى بلدي وجئت مجريط لأعمل مع أستاذى أحمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضممت مجموعتي الى مجموعته فى هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عزباً أوصى لى بكتبه على أن أشتغل بها مدة حياتى وأفتح أبوابها لطلاب الاستشراق ثم أتركها كما تركها هو لمن أرى فيه الكفاءة للعمل بعدى أو أجعلها فى احدى دور الكتب العامة .

هذا هو المثال الأول والمثال الثاني مجموعة السنيور اوسما Osma ناظر مالية اسبانيا سابقاً وهى من الفسيفساء والقيشانى الاسبانى والسلاح والرخام والسجاد والادوات والاوانى الفضية

والزمردية والاوانى الخزفيـة والبلورية والالبسـة والنقوش والتصاوير والاعمال الخشبية والنقود العربيةوالاسبانية ذهبيـة وفضية ونحاسية من صنع عرب الاندلس وصنع اسبانيا المسيحية فى القرون الوسطى هذا عدا وثائق تاريخية وسجلات من القرن السادس عشر من الآثار النصرانية وقدبدأ بجمع هذه المجموعة عم السنيور اوسما والد زوجته وأحد أشراف اسبانيا منذ زهاء خمسين سنة ودامت ابنته بعده وزوجها يطرسان على آثار هذا المغالى بالآثار الاسلامية والنصرانية . ولما جاءتها الوفاة أوصت بالقسم الذى جمعته فى حياتها والذى ورثتـه عن أبيها لزوجها السنيور اوسما على أن تدعى المجموعة كلها باسم لقب والدها فسميت مجموعة مجمع بلنسية للدون خوان

Justituto de Valencia de Don Juan وصحت عزيمة الوزير الاسبانى أن يضيف الى المجموعة ما جمعه في حياته ويجعله فى دارين بناهما فى أهم أحياء مجريط الحديثة فبنى الدار الأولى على الطراز الاندلسى والثانية على الطراز المسيحى فى القرون الوسطى وكلا الدارين متلاصقان جعلت كل مجموعـة في الدار التى تناسـبها فأصبحت الداران متحفاً مرتباً ترتيباً علمياً راقياً بمعرفة صاحبها الآن واشارة من يختلف الى داره من غلاة العاديات والآثار وحملة العلوم والفنون الذين يضمهم فى ناديه مرة فى الاسـبوع

يتفاوضون الصناعات والنفائس . وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخراً مجموعته البديعة وأقام عليها خمسة من الامناء منهم الاستاذ آسين المشار اليه ووقف عليها مبلغاً من المال لا يقل عن خمسة ملايين بستاس أو نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم وأعطاها خزانة كتبه البالغة ألفى مجلد على أن تبقى بمجموعته ويزاد فيها الدرس تاريخ الصنائع والفنون فى اسبانيا وقد توخى فى وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والاجانب على درس هذا الفرع من العلم فى اسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الانكليز ممن يصرفون مدة فى مجريط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الانكليز طلبة جامعة اكسفورد لانه درس فيها فى صباه فأراد أن يعنى عناية خاصة بمن يتخرجون فيها .

هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام فى أذهان خاصة الاسبان مثل هذه الافكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم أعظم ثروة خلفتها أمة مغلوبة لامة غالبة ولعدت فى اسبانيا من أكبر موجبات فخرها كما تربح ولايات الاندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التى يقصدها السياح من عامة أقطار الارض

العلم فى الاندلس

٩

قال لنا الدكتور روزيه[1] رئيس جامعة لوزان فى سويسرا سابقاً انى طوفت بلاد الاندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ، ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم فى ولاية بلنسية ، فان أهل هذه الولاية من الاسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسى العرب لهذه السدود ، ولم يتيسر لمدنية القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأه أبناء جنسكم فى القرون الوسطى ، ولحسن الحظ لم يقو التعصب الدينى الذى دك كثيراً من المعالم فى أرض أندلس على نسف هذه السكور على وادى الأحمر وغيرها والا لهلك أهل ذاك الاقليم عطشاً ، ومن الاسف ان مدنية هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيها ، فقبح من قضوا عليها ، وأوصلوكم الى ما أنتم عليه من الانحطاط .

جملة لا يزال صداها يتردد في أذننا منذ فاوهنا بها العالم السويسرى من بضع سنين وقد ذكرنا بها عهد الاندلس وعهد عمرانه الزاهر ، وارتقائه الباهر . ذكرنا بالامس أمة عربية أوروبية تشبه

(١) من محاضرة « العرب فى الاندلس » القيناها فى النادى العربى بدمشق مساء ٣ حزيران ١٩١٩

الغربيين فى تصوراتها وآدابها وعلومها ، ولكنها شرقية عربية مسلمة باقامة شعائر دينها وأخلاقها وعاداتها . وقلنا اننا معاشر العرب على كثرة عنايتنا أيام عزنا بتقييد علوم ديننا ولساننا وما الى ذلك ، لم نكن في العناية بالعلوم التى هى اليوم العلوم الحقيقية كالرياضيات والطبيعيات والكيمياء والفلسفة والطب والفلك دون ذلك بكثير ، والا لما قامت مصانع الاندلس على النظام الذى يرى الناس أثره ويعجبون به على اختلاف العصور ، ولما أعجب الاستاذ روزيه اليوم بهندسة العرب لسدود بلنسية الباقية لعهدنا ، بعد انقراض دولة العرب من تلك البلاد زهاء أربعة قرون .

ولقد حدث الثقات ان الغربيين من المجاورين للاندلس كالفرنجة أى الفرنسيس والالمان وسكان برومية أى الطليان وكانوا أمثل الافرنج مدنية لذاك العهد لم يكونوا الا دون جيرانهم عرب الاندلس فى العلم وأعمال العمران والصناعات والزراعة ولولا علماء الكيمياء والهندسة والنبات والطب من العرب لتأخرت المدنية فى أوربا زمناً طويلا .

ولذلك كانت الاندلس فى عهد العرب كعبة العلم يحج اليها أذكياء الطلاب من فرنسا وايطاليا وغيرها كما يحج اليوم طلاب العلم الى كليات فرنسا والمانيا وانكلترا والبلجيك وسويسرا وهولاندة

أخذ عشرات من الافرنج العلوم عن عرب الاندلس

وترجموها باللاتينية ومنها مافقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته فقط [1] . وأن العلوم التي تلقاهاجربرت الذى أصبح بابا رومية باسم سلفستر الثانى عن عرب الاندلس كانت موضوع اعجاب معاصريه حتى أتهموه بالسحر .

كانت الاندلس قبل أن تغلب بنى أمية عليهاسنة ٩٢ هـ خالية من العلم لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به ، الا إنه يوجد فيها طلسمات قديمة فى مواضع مختلفة وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية اذ كانت الاندلس منتظمة بملكتهم . ولما استقر الامر لبنى أمية عنى جماعة من أهلها بطلب الفلسفة ونالوا أجزاء كثيرة منها وفى أيام الامير الخامس من بنى أمية وهو محمد بن عبدالرحمن أي فى أواسط المئة الثالثة تحرك أفراد من الناس الى طلب العلوم أى غير علوم الشريعة واللغة ولم يزالوا يظهرون ظهوراً غير شائع الى قريب وسط المائة الرابعة .

ذلك لان رجال الدين كانوا أصحاب صولة وتأثير في النفوس ، ومن عادة من جهل شيئاً أن يعاديه . فتوهم بعضهم ان هذه العلوم الدنيوية مدرجة الى الزهد فى العلوم الاخروية ، فكانوا يشددون النكير على من يتعاطونها ، ولكن أكثر ملوك بنى أمية

(١) راجع ماكتبه هوار فى تاريخ العرب فى أسماء نقلة الافرنج فى العلوم عند العرب وما كتبه نالينو فى كتابه علم الفلك عند العرب المطبوع في رومية .

ومن بعدهم من ملوك الاندلس ، كانوا أعقل من أن يطاوعوهم في النيل ممن يريدون الايقاع بهم ، لمخالفتهم لهم في العلوم التي يعتنون بها .

اشتهر بين وسطي المئة الثالثة والرابعة من العلماء أبو عبيدة مسلم البلنسي المعروف بصاحب القبلة كان عالما بحركات الكواكب وأحكامها وصاحب فقه وحديث ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة كان بصيراً بحساب النجوم والطب وغير ذلك ، متصرفاً في العلوم ، متفنناً في ضروب المعارف ، وكان معتزلي المذهب ، توفي سنة ٣١٥ ومنهم محمد بن اسمعيل المعروف بالحكيم وكان عالما بالحساب والمنطق نحوياً لغوياً توفي سنة ٣٣١

انتدب الامير الحكم في أيام أبيه عبد الرحمن صدر المائة الرابعة الى العناية بالعلوم فاستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار الشرق عيون التواليف الجليلة في العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه ما كاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة ، فكثر تحرك الناس في أيامه الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

وقام بعده ابنه هشام فعمد الى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها وأراد استخراج ما فيها من ضروب التآليف بمحضر خواص من أهل العلم بالدين وأمرهم باخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلم

النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا الطب والحساب وأمر باحراق ماعدا ذلك وافسادها فاحرق بعضها ، وطرح بعضها فى آبار القصر ، وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغايير ، فعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم ، اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند اسلافهم ، مذمومة بالسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة ، ومظنوناً به الالحاد فى الشريعة ، فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، واضمحلت نفوسهم ، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم ، ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون مايعرفونه منها ويظهرون ماتجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك الى أن انقرضت دولة بنى أمية من الاندلس .

قال هذا القاضى صاعد وتؤيده رواية ابن سعيد فى المغرب قال : وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظاً عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فان زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً مايأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه

وان كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على ما ذكره الحجاري .

قال ابن حزم : وأما كتب الفلسفة فامامها فى عصرنا أبو الوليد ابن رشد القرطبي وله فيها تصانيف جحدها لما رأى من انحراف منصور بنى عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذى قتله المأمون بن منصور المذكور على هذا العلم باشبيلية وهو علم ممقوت بالاندلس لايستطيع صاحبه اظهاره ، وكان مطرف الاشبيلى قد اشتغل بالتصنيف في علم النجوم ، الا أن أهل بلده كانوا ينسبونه الى الزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن ، فكان لايظهر شيئاً مما يصنف .

وقال أيضاً من رسالة أهل قرطبة : انهم من التمكن فى علوم القراآت والروايات فقط وكثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متنائى الاقطار فسيح المجال . وقد ذكر ابن حزم فى رسالته هذه من نبغ فى الاندلس من المؤلفين فى علوم الدين والنسب والتاريخ والطب وعد بعض كتبهم قال : وأما الفلسفة فانى رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي دالة على تمكنه من هذه الصناعة واما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجى فى ذلك فمشهورة متداولة ، وتامة الحسن ، فائقة الجودة عظيمة المنفعة . وقال لم يؤلف فى الازياج مثل زيج

مسلمة وزيج ابن السمح ، وهما من أهل بلادنا وكذلك أحمد بن نصر .

وقال آخر : وأما كتب علم الموسيقى فكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطي من ذلك فيه كفاية ، وهو في الغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالشرق واليه تنتسب الالحان المطربة بالاندلس التى عليها الاعتماد ، وليحيي الخدج كتاب الاغانى الاندلسية على منزع الاغانى لابي الفرج ، وهو ممن أدرك المئة السابعة قال صاعد : ولما افترق الملك فى صدر المائة الخامسة من الهجرة بين ملوك الطوائف واقتعد كل منهم قاعدة من أمهات البلاد ، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة من امتحان الناس . واضطرت الفتنة الى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع ؛ فبيع ذلك باوكس ثمن ، واتفه قيمة ، انتشرت تلك الكتب بأقطار الاندلس . ووجد فى خلالها اعلاق من العلوم القديمة ، كانت أفلتت من أيدى الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبى عامر وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء ما كان لديه منها . فلم تزل الرغبة ترتفع من حين ذلك فى طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً . ثم أبيحت تلك العلوم الى أن زهد الملوك فيها وفى غيرها فقل طلاب العلم وصاروا افراداً بالاندلس .

فمن اعلام هذه العلوم على ذاك العهد أبو غالب بن عبادة الفرائضى

كان مشهوراً بعلم العدد وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد أحد المهرة بعلم الهندسة . وعبد الله بن محمد المعروف بالسرى كان عالماً بالعدد والهندسة وكان ينسب اليه العلم بصناعة الكيمياء ومنهم أبو بكر بن أبي عيسى كان مقدماً فى العدد والهندسة والنجوم وسائر العلوم الرياضية فكان يجلس لتعليم ذلك فى أيام الحكم . وعبد الرحمن بن اسمعيل بن زيد المعروف بالاقليدى كان متقدماً فى علم الهندسة معتنياً بصناعة المنطق وأحمد بن حماد القرطبى (٣٣١) عالم بالحساب والهندسة وأبو القاسم أحمد بن محمد العدوى كان معلماً بعلم العدد والهندسة نافذاً فيها وأبو عثمان سعيد ابن فتحون بن مكرم المعروف بالحمار السرقسطي كان محققاً اماماً فى علم النحو واللغة ، وله تآليف فى الموسيقى ورسائل فى الفلسفة . وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرحيط كان أمام الرياضيين فى الاندلس فى وقته ، واعلم ممن كان قبله بعلم الافلاك ، وكانت له عناية بارصاد الكواكب وله كتاب حسن فى تمام علم العدد وهو المعنى المعروف بالمعاملات ، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني ، وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى . وصرف تاريخه الفارسى الى التاريخ العربى ، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة توفى فى سنة ٣٩٨ وقد أنجب تلاميذ جلة ، ولم ينجب عالم بالاندلس مثلهم ، فمن أشهرهم ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرماني وابن خلدون

فاما ابن السمح القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس فكان متحققاً بعلم العدد والهندسة متقدماً في علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وكانت له مع ذلك عناية بالطب وله تواليف حسنة فى الهندسة وعمل الاسطرلاب والازياج ، ومنهازيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند توفى سنة ٤٢٦ وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر كان متحققاً أيضاً بعلم العدد والهندسة والنجوم ، وقعد فى قرطبة لتعليم ذلك ، وكان له أخ يسمى محمداً مشهور بعمل الاسطرلاب ، لم يكن بالاندلس قبله أجمل صنعاً لها منه .

وأما الزهراوى فهو أبو الحسن على بن سليمان كان عالماً بالعدد والهندسة معتنياً بعلم الطب . وأما الكرمانى فهو أبو الحكم عمرو ابن عبد الرحمن من أهل قرطبة أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة ، رحل الى الشرق وانتهى الى حران من بلاد الجزيرة وعنى هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع الى بلاد الاندلس وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا ، ولم يدخلها أحد من أهل الاندلس قبله ، ومحله من العلوم النظرية المحل الذى لايجارى فيه ، توفى بسرقسطة سنة ٤٥٨ وأما ابن خلدون (هو غير عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ) فهو أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمى من اشراف أهل اشبيلية فى علوم الفلسفة مشهور بعلم الهندسة والنجوم والطب ، مشبهاً بالفلاسفة فى اصلاح

أخلاقه ، وتعديل سيرته ، وتقويم سياسته ، توفى سنة ٤٤٩

ومن مشاهير تلاميذ أبى القاسم أحمد بن عبدالله الصفار ابن برغوث والواسطي وابن شهر والقرشى والامطش المروانى وابن العطار فاما ابن برغوث فهو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن برغوث كان متحققاً بالعلوم الرياضية مختصاً منها بايثار علم الافلاك وهيئاتها وحركات الكواكب وارصادها وكان له مع ذلك تحقق بعلم النحو ، ومعرفة القرآن والفقه والوثائق ، واشراف حسن على سائر العلوم ، توفى سنة ٤٤٤ وأما الواسطى فهو أبو الاصبغ عيسى ابن أحمد أحد المتمكنين من علم العدد والهندسة والفرائض وقعد بقرطبة لتعليم ذلك ، وله أيضاً بصر بجمل من علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وأما ابن شهر فهو أبو الحسن مختار بن شهر الرعينى كان بصيراً بالهندسة فى النجوم متقدماً فى اللغة والنحو والحديث والفقه شاعراً متكلما ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ وأما ابن العطار فهو محمد بن خيرة العطار فكان من تلاميذ ابن الصفار متقناً لعلم العدد والهندسة والفرائض وله بصر بصناعة النجوم وعناية بعلم حركاتها .

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمح أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى بن الناشىء وهو بصير بالعدد والهندسة معتن بصناعة الطب وأحكام النجوم وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الصفار المتطبب ومن نظراء هذه الطبقة عبدالله بن أحمد السرقسطى كان

نافذاً في علم العدد والهندسة والنجوم . وقعد لتعليم ذلك في بلده توفي سنة ٤٤٨ ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم الاشبيلي كان بصيراً بعلوم البرهان واللسان والمساءلة متفننا في ضروب المعارف صنعا لطيف اليد توفي سنة ٤٢٠

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث ابن الليث وابن الجلاب وابن حي فاما ابن الليث فهو محمد بن أحمد بن الليث كان متحققا بعلم العدد والهندسة معتنيا بعلم حركات الكواكب وارصادها وكان مع هذا بصيراً بالنجوم واللغة والفقه توفي سنة ٤٠٥ واما ابن حي فهو الحسن بن محمد التجيبي من أهل قرطبة كان بصيراً بالهندسة والنجوم كلفا بصناعة التعديل وله فيها مختصر على مذهب السند هند وخرج من الاندلس سنة ٤٤٢ ولحق بمصر ثم رحل الى اليمن واتصل بأميرها المسبحي وكان ملكه اذذاك يشتمل على بعض أفريقية وجميع مصر والشام وجزيرة العرب والحجاز وتهامة ونجد واليمن حظي عنده وتوفي سنة ٤٥٦ وأما ابن الجلاب فهو الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن الجلاب أحد المتحققين بعلم الهندسة وهيئة الافلاك وحركات النجوم وله مع ذلك عناية بالمنطق والعلم الطبيعي .

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني المعروف بابن الوقشي من أهل طليطلة أحد المتفننين في العلوم المتوسعين في ضروب المعارف من أهل الفكر الصحيح والنظر

الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ فى علم النحو واللغة والشعر والخطابة والاحكام لعلم الفقه والأثر والكلام وهومع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالانساب والأخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم ومن نظراء هؤلاء أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة أحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب وهو من لدات القاضى أبي الوليد هشام بن أحمد بن هشام وأبى اسحق ابراهيم بن لب التجيبى المعروف بالقويدس قعد للتعليم بذلك زمنا وكان له بصر بعلم هيئة الافلاك وحركات النجوم ونفوذ فى العربية توفى سنة ٤٥٤ ومنهم محمد بن عبد الله بن مرشد مولى ابن طلمس الوزير كان كاتبا كامل الصناعة يجمع الى ذلك النبوغ فى علوم كثيرة من الحساب والتنجيم والهندسة توفى سنة ٤٤٨

وكان فى القرن الخامس للهجرة افراد من الاحداث فى الاندلس مشتغلون بعلم الفلسفة ذوو افهام صحيحة وهمم رفيعة فمنهم من سكان طليطلة وجهاتها أبو الحسن على بن خلف بن أحمر وأبو مروان عبدالله ابن خلف الاستجى وأبو جعفر أحمد بن يوسف التهلاكى وعيسى ابن أحمد بن العالم وابراهيم بن سعيد السهيلى الاصطرلابى. ومن أهل سرقسطة الحاجب أبو عامر بن الأمير المقتدر بالله وأبو جعفر أحمد بن جوشن. ومن أهل بلنسية أبو زيد عبدالرحمن بن سيد.

وأبرع هؤلاء فى الهندسة على بن أحمر الصيدلانى وأبو جعفر

أحمد بن جوشن وأعلمهم بحركات النجوم وهيئة الأفلاك أبو اسحق ابراهيم بن يحيي النقاش المعروف بولد الزرقيال — والزرفيال نسبة لآلة سموها الزرقلة وهي صحيفة لرصد الكواكب — فانه أبصر أهل القرن الخامس بارصاد الكواكب وهيئة الافلاك وحساب حركاتها وأعلمهم بعلم الازياج واستنباط الآلات النجومية وأحمد بن يوسف يعرف بابن كماد (حماد ؟) كان من أهل المعرفة بالعدد وصناعة النجامة وبنى ازياجه ومنها القبس والمستنبط على ارصاد أبي أسحق الطليطلي المعروف بالزرقالة وأما أبو عامر بن الأمير بن هود فهو مع مشاركته لهؤلاء في العلم الرياضي منفرد دونهم بعلم المنطق والعناية بالعلم الطبيعي والعلم الالهي .

وكان عبد الرحمن بن اسمعيل بن بدر المعروف بالاقليدس الاندلسي متقدما في علم الهندسة معتنيا بصناعة المنطق . وموسى ابن ميمون الاسرائيلي الاندلسي قرأ علم الأوائل واحكم الرياضيات وشدا أشياء من المنطقيات وأبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة عالماً بعلوم الأوائل لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره في مصره وله تصانيف في الرياضيات والمنطق والهندسة أربى فيها على المتقدمين قال القفطي الا أنه يتمسك بالسياسة المدنية وينحرف عن الأوامر الشرعية استوزره أبو بكر يحيي بن تاشفين مدة عشرين سنة وكانت وفاته في سنة ٥٣٣

وممن اعتنى بصناعة المنطق خاصــة من سائر الفلسفة أبو محمــد بن حزم القرشي وكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزر لابنه المظفر وكان ابنه أبو محمــد وزيراً أيضاً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم نبذ هــذه الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وعنى بعلم المنطق . ومنهم أبو الحسن على بن اسمعيل بن سيده الاعمى وكان أبوه أيضاً أعمى عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيها تأليفاً كبيراً ذهب فيه الى مذهب متى بن يونس وهو بعد هذا أعلم أهل الاندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وله فى اللغة تواليف جليلة منها المحكم والمحيط الأعظم والمخصص وشرح اصلاح المنطق وشرح كتاب الحماسة ٤٥٨

ومن أعاجيب النوابغ الاندلسيين الذين فقدوا بصرهم ولم يفقدوا بصيرتهم ابن الحناط الكفيف الذى قال فيه ابن حيان انه كان أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية والاسلام بصيراً بالآثار العلوية عالماً بالافلاك والهيئة حاذقاً بالطب والفلسفة ، ماهراً فى العربية واللغة والآداب الاسلامية ، وسائر التعاليم الاوائلية ، ولد أعشى ضعيف البصر ، متوقد الخاطر ، فقرأ كثيراً فى حال عشاه ، ثم طفىء نور عينيه بالكلية فازداد براعة ونظر فى الطب بعد ذلك فانجح علاجاً وكان ابنــه يصف له مياه الناس المستفتين عنده فيهتدى منها الى مالا يهتدى البصير ولا يخطىء الصواب فى فتواه

ببراعة الاستنباط ، وتطبب عنده الاعيان والملوك والخاصة فاعترف له بمنافع جسيمة .

وأما العلم الطبيعي والعلم الألهي فلم يعن أحد من أهل الاندلس بهما كبير عناية ومن المشتغلين بهما ابن النباش التيجاني وأبو عامر بن الأمير بن هود وأبو الفضل بن حسداى الاسرائيلي .

وأما صناعة الطب فلم يكن بالاندلس من استوعبها ولا لحق باحد من المتقدمين فيها وأول من اشتهر منهم بالانداس أحمد بن اياس من أهل قرطبة ومحمد بن عبد الله الأوسط ويعرف بالحراني ومنهم يحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر لدين الله وسعيد ابن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه مولى الأمير هشام الرضى ابن عبد الرحمن الداخل وهو ابن أخي أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقد وكان له بصر بحركات النجوم ومهاب الرياح وتغيير الأهوية . ومنهم عمر بن بريق واصبغ بن يحيى وأحمد ابن حكم بن حفصون وكان هذا طبيباً نبيلا ، دقيق النظر ، بصيراً بالمنطق ، مشرفا على كثير من علوم الفلسفة ، ومنهم محمد ابن تمليخ وأبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكناني كان عالما بالطب حسن العلاج ومنهم عبد الملك الثقفي كان عالما بالطب والهندسة وكان الطب أغلب عليه ومنهم عمر وأحمد ابنا يونس ابن أحمد الحراني . ومنهم محمد بن عبدون الجبلي وكان قبل

ان يتطبب مؤدبا فى الحساب والهندسة ومنهم سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل وعبدالله بن اسحق المعروف بابن الشناعة المسلمانى الاسرائيلى وأبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى المظفر وكان بصيراً بالطب متقدما فيه ذا حظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة ومنهم أبو العرب يوسف بن محمد أحد المتحققين بصناعة الطب توفى سنة ٤٣٠

ومن أشهرهم أحمد بن ابراهيم الانصارى من أهل بلنسية كان من أهل العلم بالفرائض والحساب لايجارى فى التعاليم قعد لتعليم الحساب والهندسة ٥٩٣ ومنهم أبو عثمان سعيد بن البغونش عالم بعلم العدد والهندسة والطب ٤٤٤ ومنهم الوزير أبو المطرف عبد الرحمن اللخمى عنى عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وارسطوطاليس وغيرهما من الفلاسفة وتمهر فى علوم الادوية المفردة حتى ضبط منها مالم يضبطه أحد فى عصره وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له جمع فيه ماتضمنه كتاب ديسقوريدوس وكتاب جالينوس فى الأدوية المفردة وكان له فى الطب منزع لطيف ، وذلك أنه لايرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالاغذية أو ما كان قريبا منها ، فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى التداوى بمركبها ، ماوصل الي التداوى بمفردها ، فان اضطر الى المركب ، لم يكثر التركيب ، بل اقتصر على أقل مايمكن منه .

ومنهم أبو مروان بن زهر الاشبيلى وأبو محمد عبد الله بن

محمد المعروف بابن الذهبي وأبو عبد الله محمد البجائي المعروف بابن النباش معتن بصناعة الطب ذو معرفة جيـدة بالعلم الطبيعي ومشاركة في الالهي وتحقق بعلم الأخلاق والسياسة وبصر بصناعة المنطق . وممن عنى بطلب الفلسفة والهندسة والمنطق أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر كان صنع اليدين متصرفا في ضروب من الاعمال اللطيفة والصناعات الدقيقة .

ولم تزل صناعة أحكام النجوم نافقة بالاندلس قديما وحديثا فمن مشاهير المشتغلين بها أبو بكر يحيى بن أحمد المعروف بابن الخياط وأبو مروان الاستجى أحـد المتحققين بعلم الاحكام والمشرفين على كتب الاوائل والاواخر وله في التسييرات ومطارح الشعاعات وتعليل بعض أصول الصناعة رسالة فاضلة لم يتقدمه أحد اليها . ومن المذكورين أبو الاصبع عثمان القرى من أهل قرطبة وكان علمه الذي ينسب اليه ويغلب عليه التنجيم ومنهم عبد الرحمن ابن وافد اللخمي من أهل طليطلة رحل الى قرطبة فلقى بها القاسم خلف بن عباس الزهراوى وأخذ عنه علم الطب وكان مع تقدمه في ذلك فقيهاً عالمـاً متفنناً وله في الفلاحة مجموع مفيد وكان عارفا بوجوهها وهو الذى تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون الشهيرة بطليطلة توفى سنة ٥٦٧ وممن لم يشتهروا محمد بن عيسى ابن ينق أبو عامر من أهل شاطبة لازم أبا العلاء بن زهر باشبيلية وأخذ عنـه علمه وبرع في الطب والأدب وتوفى سنة ٥٤٧

ومن الاطباء بالاندلس جواد الطبيب النصراني كان فى أيام الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط وله اللعوق المنسوب الى جواد وله دواء الراهب والشرابات والسفوفات . وكان خالد بن يزيد ابن رومان النصرانى بقرطبة صانعاً بيده عالماً بالادوية الشجارية وابن ملوكة النصرانى كان فى أيام الامير عبيد الله وأول دولة الامير عبد الرحمن الناصر وكان يصنع بيده ويفصد العروق وكان على بابه ثلاثون كرسياً لقعود الناس وعمران بن أبى عمرو واسحق الطبيب المسيحى كان مقيما بقرطبة وكان صانعاً بيده مجرباً يحكى له منافع عظيمة وآثار عجيبة وتحنك فاق به جميع أهل دهره ومنهم سليمان أبو بكر بن تاج كان فى دولة الناصر وابن أم المؤمنين وأبو بكر احمد بن جابر وأبو عبد الملك الثقفى كان أديباً عالما بكتاب اقليدس وبصناعة المساحة وهرون بن موسى الاشبولى وعبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم والرميلى كان بالمرية فى أيام ابن معن المعروف بابن صمادح ويلقب بالمعتصم بالله

ومنحم بن الفوال يهودى من سكان سرقسطة كان متقدما فى صناعة الطب متصرفاً فى علم المنطق وسائر علوم الفلسفة ومروان بن جناح كان يهودياً وله عناية بصناعة المنطق وتوسع فى علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب ومنهم اسحق بن قسطار وكان يهودياً أيضاً وكان بصيراً بأصول الطب مشاركاً فى علم المنطق مشرفاً على آراء الفلاسفة وله تقدم فى اللغة

العبرانية وبراعة فى فقه اليهود وهو حبر من أحبارهم ومنهم حسداى بن اسحق وكان من أحبار اليهود متقدماً فى علم شريعتهم وهو أول من فتح لاهل الاندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك وكانوا قبل يضطرون فى فقه دينهم وسنى تاريخهم ومواقيت أعيادهم الى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يتعرفون مداخل تاريخهم ومبادئ سنيهم فلما اتصل حسداى بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة توصل به الى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا يجهلون واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه .

ومنهم الفضل حسداى من ساكنى مدينة سرقسطة ومن بيت شرف اليهود بالاندلس عنى بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فاحكم علم لسان العرب ونال حظاً جزيلا من صناعة الشعر والبلاغة وبرع في علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيقى ، وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر واشتغل أيضا بالعلم الطبيعى ، وكان له نظر فى الطب ومنهم أبو جعفر بن أحمد بن حسداى كان آية فى الطب والمنطق ومنهم ابن سمحون أبو بكر حامد .

وكان أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى من مرسية وأعيان أهل الاندلس وأكابرهم فاضلا فى معرفة الادوية المفردة

وكان أبو جعفر الغافقي والشريف محمد بن محمد الحسني وخلف ابن عباس الزهراوي وابن بكلارش من أكابر علماء الاندلس في صناعة الطب وابن الصلت أمية بن عبد العزيز من بلد دانية من شرق الاندلس وهو من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم وكان أوحد في العلم الرياضي متقنا لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود .

ومن أعظم فلاسفة الاندلس أبو بكر محمد بن يحيي بن الصائغ المعروف بابن باجة وكان في العلوم الحكمية علامة وقته متميزاً في العربية والادب والطب متقنا لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قالوا انه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم فانه اذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالي وهما اللذان فتح عليهم بعد أبي نصر بالمشرق في فهم تلك العلوم ودونا فيها بان لهذا الرجحان في أقاويله وفي حسن فهمه لاقاويل ارسطو والثلاثة أئمة دون ريب ومن حكمائهم الالهيين أو المتصوفين الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي صاحب الفتوحات دفين دمشق .

ومنهم أبو العلاء بن زهر كان غاية في علوم الاوائل والطب وأبو مروان بن أبي العلاء زهر وكان من كبار الاطباء . والحفيد أبو بكر بن زهر كان متميزاً في العلوم ولم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب ومنهم أبو الحفيد محمد بن أبي بكر بن زهر

وأبو جعفر بن هارون الترجالى من أعيان اشبيلية وكان محققا للعلوم الحكمية متقنا لها معتنيا بكتب ارسطاطاليس وغيره من الحكماء المتقدمين فاضلا فى صناعة الطب عالما بصناعة الكحل ، وأبو الحجاج يوسف بن موراطير من شرقى الاندلس وموراطير قرية من بلنسية كان فاضلا في صناعة الطب فالامور الشرعية أديبا شاعرا ومنهم ابن أخته أبو عبد الله بن يزيد وأبو مروان عبد الملك بن قبلال وأبو اسحق ابراهيم الدانى وكان أمين البيمارستان وطبيبه بالحضرة وكذلك ولداه وأبو يحيي بن قاسم الاشبيلى كان صاحب خزانة الاشربة والمعاجين التى يأخذها الخليفة المنصور من عنده .

وأبو الحكم بن غلندو الطبيب وأبو جعفر احمد بن حسان وأبو العلاء بن أبى جعفر احمد بن حسان وأبو محمد الشذونى وله معرفة جيدة بعلم الهيئة والحكمة والطب مشهور بالعلم وأبو الحسين بن اسدون شهر بالمصدوم الطبيب وعبد العزيز بن مسلمة الباجى وأبو جعفر بن الغزال وأبو بكر بن القاضى أبى الحسن الزهرى وابن الحلاء المرسى وأبو اسحق بن طملوس من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأبو جعفر الذهبى وأبو العباس بن رومية النباتى العشاب وأبو العباس الكنبنازى وابن الاصم وغيرهم من الأطباء الذين كانوا يجمعون الى الطب أدبا وشعراً أوفقهاً وحديثا وقرآناً أو فلسفة ومنطقاً أو نجوما أو كيمياء .

هذه جملة اجمالية في بعض رجال العلم غير الديني في الأندلس ذاك القطر الذي اليه تنسب نحو نصف المدنية العربية الذي نقل أهله المدنية القديمة الى أهل المدنية الحديثة فكانوا خير صلة وعائد بين الرومان واليونان والفرس وبين الانكليز والطليان والالمان والفرنسيس وقد تم ما تم من ذلك بفضل عقول خلفاء العرب وملوكهم هناك فقد كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك الاندلس عالماً مفنناً مكرما للعلماء والشعراء ولم يزل يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء والمتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين وكان هذا متحققا بجميع أجزاء الفلسفة يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد الى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو نفق عليهم علم الموسيقى لانفقته عندهم ولم يزل أبو بكر يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار وينبهه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم . وهو الذي نبهه الى أبي الوليد محمد بن رشد ، وأشار اليه بتلخيص كتب الحكيم ارسطاطاليس لان أمير المؤمنين كان يشكو من قلق عبارته أو عبارة المترجمين عنه وغموض أغراضه .

ومن المتأخرين في هذه العلوم أبو على الصعلعل حسن بن محمد رئيس الموقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (٧١٦) قال

لسان الدين : وكان فقيها اماما فى علم الحساب والهيئة أخذ عنه الجلة والنبهاء قائمـا على الاظلال والرخائم والآلات الشعاعية ماهراً فى التعديل مداوم النظر ذا استنباطات ومستدركات وتواليف نسيج وحده ورجعة وقته ، ومثل أبى جعفر أحمد بن حسن بن باصة السلمى الموقت بالمسجد الاعظم بغرناطة كان نسيج وحده وقريع دهره معرفة بالهيئة وأحكاما للآلة الفلكية ينحت منها بيده ذخائر يقف عندها النظر وتستدعى الحيرة جمال خط واستواء صنعة وصحة وضع وبلغ فى ذلك درجة عالية ونال عناية بعيدة حتى فضل بما ينسب اليه من ذلك كثيراً من الاعلام المتقدمين وازرت آلاته بالجمائريات والصفاريات وغيرها من آلات المحكمين وتغالى الناس فى أثمانها أخذ ذلك عن والده الشيخ المتفنن شيخ الجماعة فى هذا الفن ، ومثل أبى العباس أحمد ابن مفرج النباتي المشهور (٦٣٨) وابن جابر الرياضي المشهور والوزير ابن الحاج (٧١٤) كان من العارفين بالحيل الهندسية بصيراً باتخاذ الآلة الحربية الجافية والعمل بها انتقل الى فاس واتخذ الدولاب المنفسح القطر البعيد المدى ، والمحيط المتعدد الاكواب الخفى الحركة ، ومنهم ابن خاتمة الاديب الطبيب من أهل المئة الثامنة الذى كتب فى الوباء[1] كتابا عرف فيه الميكروب والجراثيم وأثبت العدوى بما لا يقل عن عالم من علماء هذا

(١) المقتطف م ٢٨ ص ٣٠٤

العصر ، وفيه يقول ابن الخطيب انه حسنة من حسنات الاندلس ، ومن رجالات الاندلس وأعلامها ابن طملس الوزير ، كان كاتبا مهندسا الى من ضارعهم فى علمهم من الاطباء والفلاسفة والحكماء والكيماويين ممن لا يعدهم أناس من المؤرخين فى صف العلماء جهلا وتعنتا .

هذا فى العلوم الطبية والطبيعية والفلسفية والفلكية والرياضية وقد نبغ فى الاندلسيين من العلماء فى التاريخ والجغرافيا والادب والرحلات أفراد مابرحت كتاباتهم مرجعا الى اليوم لكل عالم ومؤلف .

وقد أشبهوا علماء الغرب لهذا العهد فى العناية بالعلوم المادية وبرزوا فيها حتى نشأ لهم أئمة عظماء على مارأيت سابقاً وألفوا فيها فاحسنوا احسانهم فى صنائع لا يحسنها الا صنع الايدى دقاق النظر وكثيراً ما كانوا يبسطون المسائل ويتوسعون فى تحقيقها ومنهم من يؤلف العشرة والعشرين مجلداً فى علم واحد كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس فالف كتابه فى ستين مجلدا وألف أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة كتاب السماء والعالم فى مئة مجلد وموضوعه اللغة جعله على الاجناس فى غاية الايعاب بدأ بالفلك وختم بالذرة . وكثر فيهم المكثرون من التآليف المجودون فيها ومنهم من كان له مئة تأليف جيد . وقالوا ان تآليف ابن حزم بلغت نحو أربعمائة مجلد وتواليف عالم الاندلس عبد الملك بن حبيب السلمى بلغت ألفاً .

ومن مشاهيرهم ابن جبير الكنانى (٦١٤) الذى رحل الى المشرق كما رحل كثير من علماء الاندلس قبله الى مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها فى طلب العلم وأخذ الحكمة ثم عادوا الى بلادهم وكتب رحلته المشهورة البديعة .

واشتهر فى الجغرافيا أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ صاحب كتاب معجم مااستعجم والمسالك والممالك ومحمد بن أبى بكر الزهرى الغرناطي من أهل المئة السادسة والشريف الادريسى صاحب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ويقال له كتاب رجار وذلك لانه صنفه باسم رجار الثاني صاحب صقلية وجنوبي ايطاليا سنة ٥٤٨ وغيرهم .

ومن مؤرخيهم الحميدي وابن حيان وابن خلدون وابن الفرضى وابن بسام وابن بشكوال وابن الابار وابن سعيد وابن الخطيب ومن أدبائهم المشهورين ابن جزى وابن هانى وابن سهل الاسرائيلى ويحيى القرطبى وابن رزين وابن عمار وابن لبون والباجى وابن الدباغ وابن الجد وابن القبطرنة وابن عبد البر وابن السيد وابن عصام وابن عطية وابن خفاجة وابن وهبون وابن اللبانة وابن الصائغ وابن سارة الشنترينى وعبادة وابن وهبون وابن خروف وابن خاقان والمصحفى والاشجعى وابن جهور وابن سلمة واللمانى وابن برد وابن أبى أمية ومنذر بن سعيد والزبيدى وابن القوطية وابن العربى (أبو بكر) وابن الأعلم

والرمادي ومن أديباتهم حفصة بنت الحاج الركوني وعائشة بنت قادم وفاطمة الشيلاري وولادة بنت المستكفي بالله ومريم الفيصولي (الفصولي) وصفية بنت عبد الله التربي والغسانية والبلشية والوادي آشية ولبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن ومزنة كاتبة الأمير الناصر لدين الله وغالية المعلمة وريحانة المقرئة وفاطمة المغامي، وقمر البغدادية وحسانة التميمية وأم العلا بنت يوسف الحجازية وأمة العزيز الشريفة الحسينية وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح المرية، والعروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون واعتماد جارية المعتمد المشهورة بالرميكية والعبادية جارية المعتضد وبثينة بنت المعتمد بن عباد، وحفصة بنت حمدون، وزينب المرية، وغاية المنى، وعائشة القرطبية، وأسماء العامرية، وأم الهناء بنت القاضي عبد الحق، ومهجة القرطبية، وهند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي الشلبية، وحمدة بنت زياد المكتب وأختها زينب، قال ابن سعيد انهما شاعرتان أديبتان من أهل الجمال والمال والمعارف والصون الا أن حب الادب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها. وسعدونة وغيرهن

هذه حالة العلوم في تلك المملكة التي بادت وباد سلطانها، وقد رأيت كيف كثر المهندسون في بلنسية وغرناطة وقرطبة واشبيلية وغيرها من حواضر الاندلس وبأعمال هؤلاء الاعلام

زخر بحر العمران ، وقامت مدنية العرب على أمتن بنيان حتى دهش بها ابن القرن العشرين العلامة روزيه السويسرى على ما تقدم بك آنفاً .

تفنن عرب الاندلس

١٠

لم تقف همة الاندلسيين عند حد الابداع فى هندسة الدور والمصانع وعمل النقش والتزويق وتنجيد البناء والزخرف فيه وبناء الجسور وتعبيد الطرق وانشاء السكور والسدود ، فان هذه الاعمال فى العمران كانت نتائج لازمة للثروة العظيمة التى فاضت عليهم من زراعاتهم وصناعاتهم ومتاجرهم ، فقد تفننوا أنواع التفنن فى الزراعة ، ونقلوا الى الاندلس من الشام أنواعا من الاشجار والازهار والغراس والبقول لم يكن لاسبانيا عهد بها ومنها انتقلت الى أوربا الغربية ، ومن جملة ما أدخلوه من أنواع الشجر والنبات الفستق والموز والنخيل والارز والقطن والتوت وقصب السكر والزعفران والهليون وزهر الكاميليا الحمراء والبيضاء والورد اليابانى وغير ذلك ، وتفننوا فى هذا تفنن الغربيين لعهدنا بزروعهم وورودهم وثمارهم وبقولهم حتى كانت الاندلس المعتدلة الاقليم ، الحسنة المناخ ، تعطى ثلاثة مواسم فى السنة لحسن استثمارها ، فتدر على أهلها اخلاف الرزق

والغنى سواء فى العناية عندهم الاعذاء أي الاراضى التى تسقى بالامطار أو التى تسقى سيحاً أى بماء الانهار ، ذلك لانهم حفروا آباراً ، وأسالوا المياه من القاصية ،وعمروا خزانات وسدوداً .

وكان لهم بصر بالصنائع حملوا معهم من الشام أيضاً صناعة صقل السيوف وهى الصناعة التى نسبت الى دمشق حتى اليوم فقيل لها بالافرنجيــة Damasquinerie أو Damasquinage أو Damasquinure أى تنزيل الذهب والفضة فى الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner كما نقلوا صنعة الأقمشة من الحرير والـكتان مزينــة بالرسوم من دمشق أيضاً فنسبت اليها عندهم وقالوا فى فعلها Damasser أي عمل ثياباً على النمط الدمشقى .

واختصت قرطبة بدبغ الأديم أى الجلود واشبيلية بالحرير (كان فيها سنة ١٥١٥ ستة عشر ألف نول يعمل فيها ١٣٠ ألفاً من العملة فأصبح عددها ســنة ١٦٧٣ أربعمائة نول فقط وذلك بعد جلاء العرب والاسرائيليين) وكان بمالقة يعمل الزجاج كما « يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصى البلاد » والى اليوم ينسبون هــذا الصنف الى مالقــة فيقولون في بلاد الشام المالقى للصحاف والاوانى المعروفة . واشتهرت المرية بعمل الوشى والديباج والجوخ (كان فيها ٦٠٠٠ نول للاجواخ) و « لـكورة باجــة خاصــية فى دباغة الأديم وصــناعة الـكتان » وكان فى المرية « لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر

ألف نول وللاسقلاطون [1] كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية مثل ذلك وللعنابي والمعاجر [2] المدهشة والستور المكللة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف »

وكان الديباج والوشي يعمل أولا فى قرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يتفق فى الاندلس من يجيد عمل الديباج اجادة أهل المرية . وانفردت سرقسطة بصنعة السمور ولطف تدبيره وهى الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية خصوصية لاهل هذا الصقع « وفى جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق » وكان فى جيان ٦٠٠ نول للحرير ويعمل السجاد فى رية والسلاح والحلى فى قرطبة ومرسية وطليطلة وسرقسطة . وأخذت شاطبة تصدر الورق بكثرة منذ سنة ١٠٠٩ قال ياقوت وفى شاطبة يعمل الكاغد الجيد ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس وبالجملة فلاهل هذه الديار « خصائص كثيرة ومحاسن لاتحصى واتقان لجميع مايصنعون » قال ميجون : كانت فى الاندلس عدة معامل مشهورة لصنع الفسيفساء ويسمونه المفصص ونقلت صناعة الفسيفساء عن الرومان

---

(١) بلد بالروم تنسب اليه الثياب السقلاطونية وقد تسمى الثياب بنفسها سقلاطوناً قال فى التاج هي كلمة رومية (٢) المعجر ثوب يمنى يلتحف به ويرتدى والجمع المعاجر

وهكذا رسخت الصنائع فى امصار الاندلس . برسوخ الحضارة وطول أمدها قال ابن خلدون : فانا نجد فى الاندلس رسوم الصنائع قائمة . وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمبانى والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو ، من الآلات والاوتار والرقص ، وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف ، وجمع المواعين واقامة الولائم والاعراس ، وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك ، وحظ متميز بين جميع الامصار . »

وذكر سيديليو ان العرب من حيث الاخلاق والعلم والصناعة كانوا أرقى بكثير من الاسبان وهم أمتن أخلاقاً وطبائع ، وفيهم الكرم والاخلاص ، والاحسان الذى لم يكن عند عداتهم كما ان فيهم عزة النفس التى امتازوا بها فى كل زمن ، وكان الافراط المضر فيها داعياً الى احداث البراز . وساعد على عظمة العرب فى اسبانيا انتشار الآداب والعلوم والفنون على عهدهم انتشاراً كثيراً وكذلك الزراعة والصناعة وعم الذوق فى اللذائذ العقلية جميع طبقات المجتمع . والشعر يرقي النفوس . وغدت المنافسة الشريفة على أتمها فى الافكار . وكانوا يكتبون على جميع المصانع اسم من أمر ببنائها ، واسم بانيها ، والأمة تمدح المحسن بها ،

والحسن لبنائها ، وارتقت عنـدهم الهندسة والموسيقى والرقص الى درجة ذات بال . ولا يزال الى اليوم فى الغرب يدرس أسلوب بنائهم ، ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش ، وكان لدولة الموحدين فى الاندلس ذوق خاص فى البناء انشاؤا الجوامع والمآذن والاماكن العامة والمستشفيات والرباطات ، فى كل بلد من بلادهم وأقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الآبار وأجروا الانهار اه .

ولقد كانوا يستخرجون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ويستقطرون السكر ويعملون اللبود « المشهورة فى جميع الارض بالجودة والصبغ الحسن . ولهم من الالوان والاصباغ والحشائش التى يلون بها الحرير وأنواع الصوف والثياب ماليس في بلد من بلدان الارض له نظير حسناً وكثرة . » ويحملون حاصلاتهم ومصنوعاتهـم الى أقطار المملكة العربية بل الى أقاصى البلاد الشرقية والغربية فى البحار على سفن الاندلسيين التجارية وكان لهم منها أساطيل فى كل فرضة من فرضهم تقلع على الدوام من موانى الاندلس لتحمل الى شواطىء أفريقية وآسيا وأوربا مايروج فيها من سلعهم ومعادنهـم وثمارهم وحبوبهم .

قال كاباتون : كانت مدنية العرب فى اسبانيا ظاهرة فى الامور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعيـة لاخصاب الاراضى البائرة فى الاندلس من الاساليب العلمية التى اتخذوها

لها وهي أساليب ان لم تكن من اختراع العرب فهم الذين أكملوا نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم أسسوا معامل للحرير والجلود والبلور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب وأقاموا ما لا يحصى من المعاهد العامة وفيها مايستدعي اعجاب الامم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من انشائه اه .

وقال أحد علماء الفرنجة : كان في الاندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (سكان اسبانيا اليوم نحو ٢١ مليونا وسكان البرتقال ٦ ملايين) وعلى ذلك العهد قامت فيها المدن المهمة التي يعجب الناس الى اليوم بخرائبها وعلى ذاك العهد كانت الزراعة ناجحة وبفضل هندسة العرب كانت المياه تجري الى كل مكان في بسائطها فتحمل الخصب والامراع . وقال آخر : ان عهد استيلاء العرب على اسبانيا كان أسعد أيامها لنجاح زراعتها بما قام فيها من أعمال السقيا وبفضل غراسهم وزروعهم وحسن استثمارهم لمعادن الارض ومناجمها ولما اغتنت البلاد كثر فيها سكان الدساكر والقرى كما كثر سكان المدن الكبرى .

***

ولا عجب — وحال البلاد من ارتقاء الصنائع والزراعة وتعدين المناجم واتساع التجارة قد بلغ هذا الحد — ان كانت جباياتها من حقوقها وغير واجبها الى سنة ٣٤٠ هـ نحو عشرين ألف ألف دينار

قال ابن حوقل : ولست أشك على مايوجبه النظر وتواطأ به الخبر فيما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه من خدمه والمصادرين الذين كانوا فى جملته عن أسباب الاندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها واعشارها وصدقاتها وجواليها تمام أربعين ألف ألف دينار وبلغ خراج الاندلس على عهد عبد الرحمن الثالث عدا ما كانت دولته تستوفيه عيناً ٦،٢٤٥،٠٠٠ دينار . وحكى ابن خلدون عن الثقات من مؤرخى الاندلس : ان عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة الف قنطار وكان هذا الملك يقسم الجباية اثلاثاً ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف الف واربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن الستوق[1] والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان . وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر الى ثلاثة آلاف الف دينار بالانصاف .

***

كان للاندلسيين حذق باستخراج العلوم واستنباطها من ذلك ان عباس بن فرناس حكيم الاندلس صنع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود وهو الذى

(١) الستوق الزيف البهرج الملبس بالفضة

استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفه بالمثقال (؟) ليعرف الاوقات على غيرمثال واحتال فى تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ثم سقط . فهو أول من حاول الطيران من بنى الانسان

وكان أهل قرطبة أول من عنى بتبليط المدن وكذلك انارة الطرق فى الليل عرفت لاول مرة فى قرطبة أيضاً ولما ارتقت العلوم على عهد بنى الاحمر فى غرناطة اكتشفوا بل احترعوا بارود المدافع وعرف منذ ذاك العهد ولا تزال مدافعهم التى دافعوا بها عن غرناطة محفوظة الى اليوم فى أحد متاحف اسبانيا .

وفى الاندلس عرف الطبع فكان أحد أبنائها هو السابق فى مضمار هذا الاختراع الذى لم تنتفع الانسانية بافيد منه . فكانت لهم فيه طريقة لم ينته الينا خبرها بالتفصيل بل عرف اجمالا ان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر من أهل المئة الرابعة « كان ينفرد بالولايات فتكتب السجلات فى داره ثم يبعثها للطبع فتطبع وتخرج اليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه » فاذا كان هذا هو الطبع المعروف وما نظنه الا هو فيكون ابن بدر العربى قد سبق غوتمبرغ الالمانى مخترع الطباعة بنحو أربعة قرون .

وذكروا أن ملوك غرناطة فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم

ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة على نحو ما فعل لويز الرابع عشر وكولبر فى فرنسا . وعنى الاندلسيون بتأليف رسائل يفهمها كل انسان تكون معواناً على الانتفاع بالاعمال العامة وهم انشأوا دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتفيدهم فيما هم بسبيله .

واخترع الاندلسيون الخطوط المخصوصة بهم كما اخترعوا الموشحات التى استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها وكانت طبقاتهم فى نظمهم ونثرهم لاتخفى على بصير ولم يكن يخلو بلد من كاتب بليغ وشاعر مفلق بل « كان من مدنهم مثل شلب قل ان ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته منه » وخص أهل وادى آش بالادب وحب الشعر . وعلل ذلك أحد العارفين بقوله أن أهل الاندلس أشعر الناس لما اكثر الله تعالى فى بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانهار والطيور والكؤوس لا ينازعهم أحد فى هذا الشأن .

وكانت للاندلسيين عناية بنقد الشعر لا يجوز عليهم ساقطه ونبغ كثيرون منهم فى هذا المعنى والفوا فيه التآليف الممتعة . وكانت لهم مدارس لتعليم القرآن والكتابة والحساب وتعلم العلوم على اختلاف ضروبها فى الجوامع من غير نكير يعلمون الفلك

والجغرافيا واللغة والطب والنحو ومبادىء الطبيعة والكيمياء والمواليد الثلاثة ذكروا أنه كان فى قرطبة ثمانون مدرسة عامة وسكانها مليون نسمة وان الموحدين انشأوا فى الاندلس مدارس عامة ومدارس عليا وأغدقوا احسانهم على العلماء يريدون أن يعيدوا الى الاندلس بهاءها على عهد الامويين وان الحكم انشأ فى قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة اتخذ لها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأجرى عليهم المرتبات وعهد اليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم وفى ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتب لليتامى من نواحيها
لومكنت سور القرآن من كلم نادتك ياخير تاليها وواعيها

واحدث رضوان النصرى (٧٦٠) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها وكانوا كما قال ابن سعيد يقرأون فى جميع العلوم فى المساجد باجرة فهم يقرأون لان يعلموا لا لان يأخذوا جارياً فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ذلك أن يترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم .

وكثيراً ما كان ملوك الاندلس يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلانى من كتب الادب والعلم ومن حفظه فله كذا دينار فما هو الا أن يحفظه مئات طمعاً فى الجائزة وعم التلذذ بالادب جميع طبقات المجتمع عندهم . وكثير من الشعراء كانوا ينتجعون

بشعرهم الملوك والامراء يمدحونهم فيصلونهم ويؤونهم زمناً على نحو ما كانت الحال فى القرون الوسطى فى المتشاعرين المتغنين بالشعر المتكففين به فى بلاد الافرنج ويسمونهم بالافرنسية التروبادور والتروفير[1] Les Troubadours et les Trouvères

***

وكان تعليم البنات شائعاً عندهم وكثير منهن يحفظن بضعة دواوين من دواوين العرب وينظمن ويترسلن كالاوربيات اليوم واذا عرفت ان المدارس كانت مبذولة فى المدن والقرى فلا تستغرب بعد ذلك ان قال أحد مؤرخي الافرنج ان سكان اسبانيا الاسلامية الا قليلا كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان اهل الطبقة العليا فى أوربا المسيحية أميين لا يقرأون ما عدا أفراداً قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم .

وكان للاندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الاندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيمة . وقد انشأ الحكم الثانى عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل

(١) التروبادور شعراء كانوا يقولون الشعر باللغة الافرنسية القديمة فى القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر والتروفير شعراء بلغة وال من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر كانوا يحتلفون الى الملوك والعظماء ينشدون الاشعار ويضربون على الاوتار وربما أقاموا فى قصورهم مدة ثم يتنقلون .

وكلاءه الى المشرق يستنسخون الاسفار فما هو الا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخة أو نسخ لتحمل الى خليفة الاندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول وكانت دار كتبه تحتوي على أربعمائة الف مجلد جاء فهرسها فى أربعة وأربعين مجلداً ولطالما أجزل ملوك الاندلس الصلات لبعض مؤلفى الشرق والاندلس حتى يذكروا فى مقدمتها أنهم الفوها برسم خزائنهم ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك ومنهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه .

وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والادباء فى الاندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الاكاديميات فى هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية . وكان المظفر بن الافطس صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالادب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفرى فى خمسين مجلداً فى الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لأبى عامر أمير الاندلس فى دولة هشام المؤيد مجلس معروف فى الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته .

وقد انشأ الحكم مجمعاً فى قصر مروان وقلده غيره من أمراء الاندلس فأنشأوا مجامع لهم . وانشأ احمد بن سعيد النصرى مجمعاً

فى طليطلة فكان يجتمع عنده أربعون عالماً من طليطلة والبلاد المجاورة ثلاثة أشهر فى السنة أى فى شهر تشرين الثاني وكانون الاول وكانون الثاني يعقدون اجتماعاتهم فى ردهة فرشت أحسن فرش فيبدأون عملهم بتلاوة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون فى تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد الى البحث فى فنون شتى من العلم والحكمة .

***

وكان أمير المسلمين على بن تاشفين لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء[1] فكان اذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد اليه أن لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة فى صغير من الامور ولا كبير الا بحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الاول من فتح

(١) كان للقضاة فى الاندلس مشاورون حتى لا يصدروا الا عن آراء ناضجة واليك مثالا من تقليدهم : « هذا كتاب تنويه وترفيع ، وانهاض الى مرقى رفيع ، أمر بكتبه الامير الناصر للدين أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الاجل المشاور الحسيب الاكمل أبى بكر بن أبى جمرة ادام الله عزه انهضه به الى الشورى ليكون عند ما يقطع بامر ، أو يحكم فى نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه وجده فى اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريفة له بل تليدة ، متوارثة عن اسلافه الكريمة وآبائه ، وليتحملها تحمل المستقل بأعبائها ، الاحق بأنبائها ، العالم بمقاصدها المتوخات المعتمدة وانحائها ، والله يزيده تنويها وترفيعاً ويبوءه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعا ، وكتب فى التاسع لذى حجة ٥٣٩ الثقة بالله عز وجل اه .

الاندلس . وأمير المسلمين هذا هو الذى اجتمع له ولابيه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار فانقطع اليهما من الجزيرة من أهل كل علم لخوله ، حتى اشبهت حضرتهما حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأً لاهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد أشادت مآثرهم ، وابقت على غابر الدهر حميد ذكرهم .

كان أهل دانية اقرأ أهل الاندلس لان مجاهداً العامرى كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق الاموال فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا فى بلاده قلنا واذا كان عرض للاندلس فى بعض أدوارها مافرق جامعتها السياسية فاستفاد من ذلك أعداؤها فقد كان لتفريقهم الى ممالك صغرى داعياً الى التنافس أحياناً حتى صار لكل اقليم مزية ليست لغيره ، واختص كل ملك بشىء فاتخذ أسباب النجاح فيه ، واستدعى أهل الاخصاء من رجاله .

ومن لطيف تدبيرهم فى الانفاق على الجند دون تحميل الامة أعباءه وهو تحت السلاح ما عمله ابن جهور رئيس قرطبة من جعل أهل الاسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها فقط ورؤوس الاموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون فى الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه فى الدكاكين وفى البيوت

حتى اذا دهم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه .

ومن أجمل أعمالهم فى اقامة قسطاس العدل ان هشام بن عبد الرحمن الداخل كان يبعث الى الكور قوماً عدولا يسألون الناس عن سير العمال ثم ينصرفون اليه بما عندهم . واعترض له يوماً متظلم من أحد عماله فبدر الى الشاكى وقال له : احلف على كل ماظلمك فيه فان كان ضربك فاضربه أو هتك لك ستراً فاهتك ستره أو أخذ لك مالا نخذ من ماله مثله الا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله فجعل الرجل لا يحلف على شيء الا أقيد منه .

ولقد بنى الخليفة عبد الله بن محمد الساباط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة وكان يقف فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويشرف على اجتهادهم وحركاتهم ويسير بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفي عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضاً على الابواب فى أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلامات وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرحباً مستطيلا لذلك فلا يتعذر على ضعيف ايصال بطاقته بيده ولا انهاء مظلمة على لسانه وفتح باباً في قصره سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يوماً معلوماً فى الجمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً . فكانت سيرة عمالهم مع الرعايا ان يتحفظوا من كل أمر يوجب الشكوى منهم وينقبضون عن التحامل على من دونهم .

وهكذا فانه لا يكاد يخطر ببالك شيء من أدوات الحضارة

ومقومات العمران وأساليب العلم والمعرفة الا قام به أو ببعضه ملوك الاندلس وأهلها حتى التماثيل فانها كانت تجعل فى قصور العظماء والصور تزين بها غرفهم وردهاتهم لذلك أبقوا على أكثر ما كان فى البلاد قبل الفتح من التماثيل للاعتبار بها خصوصاً بعد ان انغمسوا فى الحضارة قال أبو عامر البريانى فى الصنم الذى بشاطبة :

بقية من بقايا الروم معجبة   أبدى البناة بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضمروا فيه سوى أمم   تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالمبرد الفرد ما أخطا مشبهه   حقاً لقد برد الايام والامما
كأنه واعظ طال الوقوف به   مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر الى حجر صلد يكلمنا   أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وقد أقاموا حدائق للحيوانات والنباتات وعنوا حتى بصراع الثيران فضارعوا الاسبانيين وربما فاقوهم وأولعوا بالرقص ولهم منه أنواع وكذلك آلات الطرب كالخيال [1] والكرج والعود

---

(١) الخيال هو الذى يسمى خيال الظل أو الخيال الراقص أو خيال جعفر الرانص وجعفر اسم مخترعه يسميه العامة كركوز « قره‌كوز » وبالفرنسية Marionnette, polichinelle والكرج تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيول فيكررن ويفررن ويثاقفن وهى من آلات ارقص وتسمى بالفرنسية Carrousel, chevaux de bois والروطة ضرب من الرباب معربة عن الاندلسية Rotta أو Rote, وبالافرنسية rotte أو Rote, والمؤنس قربة يركب فيها مزمار ولعلها من اصل اسبانى يقابلها بالفرنسية Musette أو Cornemuse والكثيرة ضرب من السطور تنقر أوتارها بالاصابع Cithare والقنار Guitare

والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والقيثار والزلامى والشفرة والنورة والبوق وكان فى مدينة آبدة من أصناف الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ماتظنهن فيه احذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدكر واخراج القزى والمربط والفتوخة

أما الموسيقى فقدكان زرياب أدخلها الاندلس فكان يجرى عندهم مجرى الموصلى فى الغناء وله طريق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه وعلا عندالملوك وأحسنوا اليه حتى كادوا يفرطون وشهر شهرة ضرب بها المثل . ولاعجب اذاقلنا ان تفرق الاندلس اصقاعاً وممالك كان أشبه بتفريق المانيا وايطاليا قبل وحدتهما الى أمارات صغيرة تتنافس فى مضمار العلم والصنائع والعمران .

آلة ذات ستة أوتار ولها يد مقوسه الى انصاف الخان يركب عليه دساتين والزلامى نوع من المزمار هو تصحيف الرنامى نسبة الى زنام مستنبط الناى وكان زنام زماراً مشهوراً عندهرون الرشيد يضرب به المثل فى حسن صناعته . والشفرة والنورة مرماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه والعود معروف وبالفرنسية Luth والرباب معروف وبالفرنسية Rebec والقانون مشهور وبالفرنسية Harpe والبوق معروف . والدكر نوع من الرقص أو اللعب يعرفه الزنج والحبش وبالفرنسية Kalenda والقزى نوع من لعب المشعوذين والفتوخة جمع فتخة وهى خاتم كبير وهى لعبة الخاتم « من مقالة للعلامة الاب انستاس مارى الكرملى : المقتبس م ١ ص ٤٣٥ »

مدينة مجريط

١١

سار بنا القطار من باريز الى جنوبي فرنسا ماراً بأراض عامرة بزراعتها دالة على سلامة ذوق أهلها وتفننهم فى ضروب الحياة المادية والأدبية ولما اجتزنا جبال البيرنات « جبل الثنايا » دخلنا ليلا محطة إرون الاسبانية قاصدين الى مجريط عاصمة اسبانيا الحديثة كثرت لواعج الاشواق الى الصقع الاندلسى واشتدت تباريح الذكرى

وأكثر ما يكون الشوق يوماً ... اذا دنت الخيام من الخيام

تمثلت للعين تلك الأمة العربية الغربية ، وما أثلته من الأمجاد فى هذه البلاد ، وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية ، تذكرت جيلا عظيما ، لم يبق سوى التحدث بطيب أخباره . والتطلع الى جميل آثاره ، ذكرت عشرات الألوف من العظماء ضمت الاندلس أعظمهم ، وكان كل واحد أمة برأسه ومنهم من لم ينبغ أمثال لهم فى أمة فى القرون المتواصلة ووددت لو أمكن العمل بحكمة المعرى حين قال :

خفف الوطء ما اطن أديم الا ... رض الا من هذه الأجساد
وحرام بنا وان قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والأجداد

مدينة مجريط أو مدريد هى عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦٠ وسكانها اليوم يقربون من سبعمائة ألف وهى العاصمة التى اختارها فيليب الثانى لتوسطها من البلاد وكانت على عهد العرب حصناً أو بليدة ولم ترزقها الطبيعة نهراً كبيراً ولا ضاحية بديعة مشجرة مثمرة بل كان قديماً فى أرباضها بعض الغابات لحظمت ولم يبق منها الا القليـل . على أن فيها اليوم مافى جميع عواصم الغرب من المرافق والمصانع . زرت بعضها وهى لا تختلف عن مصانع الأمم اللاتينية الا قليـلا بل هى أقل عظمة من مصانع ايطاليا وفرنسا وليس فى مجريط أثر يعتد به من آثار العرب ، وأما آثار الاسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لأنها حديثة عهد على الأغلب وتكاد تكون الصبغة الدينية متجلية فى كل مصنع من مصانعهم .

وأكثر أحياء المدينة صيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن المنحطة فى أوربا الا ان بعض الأحياء والدور المستحدثة هى على الطراز الغربى الجديد ولها حدائق وساحات على جانب من السعة مستوفاة شروط الصحة . وقد أنشئت فى زمن الحرب العامة فى مجريط وغيرها من مدن اسبانيا بيوت أقامها أغنياء الحرب أى الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم اسبانيا لحيادها وقد أحسنت لنفسها بالتزامها خطة المسالمة ومن هذه البيوت مايقتضى ألوفاً من الايرات . فلما اشتدت الازمه على أوربا عامـة لحق

اسبانيا من أثرها شيء بالطبع فوقف العمل في بعض تلك البنايات وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التى أحدثوها مغتنمين فرصة تقاتل جيرانهم

في مجريط تسعون كنيسة من الكنائس التى لا شأن لها في نظر التاريخ وعلم العاديات . وليس لها مقام رفيع في باب البناء الحسن . والمصانع التى من هـذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكى اليوم محل القصر العربى وكان هنرى الرابع جعل هذا القصر محلا للصيد . وفي متحفها الوطني بعض آثار العرب التى أفلتت من أيدى الذين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال الدين وخربوها وأتلفوها . أما تاريخ هـذا الحصـن العربي أى مجريط فليس بعظيم وخلاصته أنه أخذ من العرب ثم استعادوه الى أن استولى الاسبان على طليطلة سـنة ١٠٨٦ م فأصبحت مجريط يومئذ اسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبرتقال وقد أنشىء فيها في العهد الأخير تراموای کهربائي Métropolitain تحت الأرض على مثال تراموای باریز ولندرا و برلین و نیویورك .

دير الاسكوريال

١٢

أهم مافى ضاحية مجريط دير الاسكوريال على أحد وخمسين كيلو متراً منها بناه فيليب الثانى ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع البانتيون مدفن العظماء من الآل الملوكى .وقيل انه أنفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف مليون من البستاس أى المرنك الاسبانى .

والاسكوريال كما قال عنه واصفوه من الافرنج مثال مما تعمله الارادة ومما لا تعمله فقد قيل ان الارادة قادرة فى بعض الاحوال وعاجزة عن إيجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية وهذه الشعلة الالهية قد نقصت في عمل بانى الدير فمن انه نشأ فى عهد لم يشتهر بقوة الايجاد ولا بسلامة لذوق فجاء بناؤه جافاً رغم ما تعاوره من أيدى المهندسين لم ينم عن لطف ولا حوى أسباب الجمال . وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في مظاهر أبهته وعظمته ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته منه فى هذا الشأن فلم يكن لهم هم الا أن يدهنوه وكان من طبعه أن يتدخل فيما لا يعلم حتى أفسد على المهندسين عملهم أو كاد وجاء العمل الذى

أبقاه للاعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير أمر من جمال الهندام والنظام أشبه بسجن مظلم وديماس منحوت .

وأهم ما يلفت النظر فى هذا الديردار كتبه وفيها خمسة وأربعون ألفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم ومنها الكتاب المقدس الذى كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا فى القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ما كتب بالاسبانيولية أو اليونانية ومنها المزين باجمل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على رق ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهى الفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لاحد ملوك مراكش المتأخرين . وكان فى هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربى فالتهمتها النار فى الحريق الذى نشب فى الدير مع ما التهمت من الكتب الاخرى .

فليست الكتب العربية فى خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها كما أكد لنا أحد علماء الاسبان وصاحب البيت أدرى بالذى فيه أخبرنى أن الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لاحد سلاطين الغرب الاقصى فوقعت فى أيدى الاسبان وقال آخر أن أصل هذه المجموعة كانت لاحد سفراء اسبانيا لدى الباب العالى ولما غادر الاستانة أهداها لملكه فوضعها هذا فى الدير الذي كان مالكاً له ولآله من بعده والرواية الاولى أصح .

وقد وصف هذه الكتب باللاتينية أحد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩ ١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطاً رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيما كتبه أحد علماء المشرقيات من الفرنسيس ولا سيما القسم الذى يهمنى منها

عرانى فى هذا الدير ما عرا كثيرين قبلى من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التى تدعو الى العزلة والتفكر والانكماش والدرس وانك لتشعر وأنت تسير تحت قباب الاسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الاديار كما تشعر فى مدارس اكسفورد وبيعها والنازل هنا بطبيعته يرى دافعاً من نفسه يدفعه إلى أن يشغل نفسه بشىء وما من ملجأ أوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر فى كشف المسائل المتعذرة المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد .

قرطبة والزهراء

١٣

بأربعة فاقت الامصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها

لم يكتب لى أن أزور مدينة طليطلة لاشهد فيها قصور العرب

القديمة ومساجدها القائمة الى اليوم وعادياتها المأثورة وكانت من عظائم مدائن الاندلس وهى من قرطبة على عشرين يوماً فاكتفيت بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الاندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة وهى العواصم الثلاث التى تأصل فيها حكم العرب وطالت أيامه .

وقرطبة كانت فى عزها أعظم مدائن الاندلس فأصبحت الآن وليس فيها من السكان سوى ثمانية وخمسين ألف ساكن وقيل ان مساجدها بلغت ألفاً وستمائة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر آخرون انه كان فيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر دورها ثلاثون ألف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيه مقلص (١) تكون الفتيا فى الاحكام والشرائع له يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه بأحوال بلدهم .

قال المراكشى : بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة . حكى ابن فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى هذا ما فى ناحية من نواحيها

(١) المقلس هو الذى يلبس القالس أو القلنسوة وكان يحق للمقلس وحده فى الاندلس ان يفتي وكان عليه ان يستظهر الموطأ والمدونة أو عشرة آلاف حديث وللمقلسين الحق ان يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزى فى ملحقه على المعجمات العربية)

فكيف بجميع جهاتها وكان الماشى يستضىء بسرج قرطبة ثلثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .

وفى تواريخ الافرنج ان قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أى أوربا وليس مايشبهها بعمرانها وسكانها فكان فيها خمسمائة ألف ساكن و٢٨٧ راضاً وهى مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزهات البهجة المغروسة بأنواع الاشجار على طول الوادى الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان فى هذا الوادى الكبير أربعة عشر ألف قرية .

فقرطبة كانت أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب « لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق » ووصفها المقدسى فقال : « وصف ماشئت من طيبها ورحبها فانها جمة الاندلس على ما حكى لى وهى مصر الاندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وان ثم عدلا ونظراً وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة وديناً وهى فى جهاد ونفير أبداً مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد » وذكروا ان لاهل قرطبة رئاسة ووقار لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم .

ليس فى قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدها الأعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبداً للويزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون وأخذ المسلمون نصفه

سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الاموى فى دمشق يوم بنى جامعها واستصفى النصف الآخر من أربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس أخرى.

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد فى المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذى يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان وهو من أعجب البنيان . وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ربع جميع ماجرته اليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين فى جميع كور الاندلس وأقاليمها على ثغور الاندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع عاما بعد عام على ضعفائهم الا أن تكون بقرطبة مجاعة فتفرق فيهم .

ومما قيل فى آثار مدينة قرطبة وعظمها حين تكامل أمرها فى مدة بنى أمية ان عدة الدور التى بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التى بقصرها الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته .

وقالوا ان المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة قد هدمها مرور النهر على ممر الازمان فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه عند ما اتصل به خبرها فامر السمح بابتنائها فصنعت على أتم وأعظم مابنى عليه جسر من حجارة سور

المدينة . وربما كان هـذا أول عمـل فى العمران قام على أيدى عرب الاندلس فى القرن الأول للهجرة .

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة أهل البـلاد التى تغلبوا عليها فنسجوا فى بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا من أعظم مساجد الاسلام وقيل أنه بنى على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقى منها الآن ٨٦٠ وهى أدق من سوارى الجامع الأموى اليوم وقال آخران البانى واخلافه جلبوا هذه السوارى من ابنية قديمة وبيع مسيحية فى القاصـية كجنوبى فرنسا وأفريقية أى قرطاجنة والاستانة وتبين ان أكثرها من مقالع اندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع لا يزال محفوظاً وهو دهشة الى اليوم والى ما بعـد اليوم وعلو قبته تسعة أمتار حفر فى قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيفساء وزبرت عليه آيات كريمة . وله اثنان وعشرون بابا معمولا بالنحاس بقى الآن منها ١٢ بابا وعلى بعضها صورة نقوشها الاصلية وقد قام البرج الذى هناك مقام المنارة التى أنشأها عبد الرحمن الناصر . يقول جوسيه لو أقيمت البيعة التى أقاموها وسط الجامع على عهد شارلكان فى مكان آخر لصار لها شأن وهى هنا من أبشع آثار الهندسة اذ أحدث بانوها بها ضرراً على بناء وحيد من نوعه فى العالم .

وكان فى جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس أنوارها على النقوش المذهبة والزمرد والياقوت والمفصص وغيرها فتزيد فى جماله وعلى ما أصيب بهذا المسجد من الأضرار بقى الى اليوم من أغرب ابنية الأرض .

قال غوتيه : لا سبيل الى وصف التأثر الذى يشعر به المرء عند دخوله هذا المسجد الاسلامى القديم فيتراءى لك انك تسير فى غابة مسقوفة لا فى بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك فى صفوف من السوارى تلتقى وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على أديم الأرض اه .

نعم ان البيعة التى أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التى جعلت فى أكثر زواياه قد شوهت من محاسنه وابدلته عن أصله وفى نية ديوان الآثار فيما بلغنى أن يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى بدون زيادة ولا نقصان طرازاً فى البناء منقطع القرين فى الأرضين الا ان البيعة الوسطى بيعة شارلكان يصعب نقل انقاضها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال .

هذا مابقى من آثار الأجداد فى قرطبة وقد زرتها وأرباضها فرأيتها وهى على منبسط من الأرض تشبه ضاحيتها ضواحى دمشق وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربى البديع ولأهلها الى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة

مقدساتهم . وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ بناها الناصر لدين الله الأموى فى ست عشرة سنة وطولها ألف وستمائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعاً وجعل فى سورها ثلثمائة برج وخص ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية وأهدى ملك الفرنج لبانيها أربعين سارية رخام واما الوردى والأخضر فمن أفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الاندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف درهم .

وقال أحد المؤرخين ان مبانى قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وأفريقية فيها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه وكان عدد الفتيان فيها ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذى جلب من مقالع الاندلس أو حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ولما

جلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثني عشر تمثالاً . وقال بعضهم عمل فى الزهراء عشرة آلاف عامل خمساً وعشرين سنة وفى الشرق من الوادى الكبير مدينة الزاهرة التى بناها المنصور ابن أبي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدها متهدمة:

ديار بأكناف الملاعب تلمع ... وما ان بها من ساكن فهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب ... فتصمت أحياناً وحيناً ترجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً ... له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى ... فقال على دهر مضى ليس يرجع

وقد حرقت الزهراء وهدمت فى حدود سنة ٤٠٠ هـ وبقيت رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق فى حرب البربر وسقطت قرطبة فى أيدى العدو سنة ٦٣٣ هـ بعد ان كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن فى أيدى العرب ولم يعد حكمهم اليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع الى أمره صار كل من قويت يده عمر مدينة فخربت قرطبة وعمرت اشبيلية.

مدينة اشبيلية

١٤

على شاطىء الوادى الكبير في أجمل بقاع الاندلس وأعدلها هواء وأزكاها تربة قامت هذه العاصمة التى كانت من أعظم مدن الاندلس بعد سقوط قرطبة فى أيدى الاسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور وليس اليوم فى اشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب الا الجيرالدا أومنارة الجامع الاعظم وهى أعجوبة اشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربى من سنة ١١٨٤ — ١١٩٦ لأبى يوسف بن يوسف من دولة الموحدين وهى من الآجر يدق حجمها كلما ارتفعت فى الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذي ١٣ متراً و٥٥ سنتمتراً ويزيد سمك الجدران على مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الاسبان بعد خروجها من أيدى العرب وهى الآن قبة جرس البيعة الكبرى .

قال فى ذيل اللباب : فدخل (يعنى أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن) اشبيلية فى غرة صفر سنة ٥٩٣ فاخذ فى اتمام بناء الجامع وتشييد مناره وعمل التفافيح من أملح ما يكون من عظمة لا أعرف له قدراً الا أن الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها وزنة العمود الذى

ركب عليه أربعون ربعاً من الحديد وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلى وموّهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهباً اه .

ومن أجمل مافى كنيسة اشبيلية اليوم والجامع أمس ناووس من الصلب فيه بقايا خريستوف كولمبس الملاح الجنوى الذى اكتشف أميركا يحمله من أربعة أطرافه ملك قشتالة وملك ارغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كان فى كنيسة هافان ثم نقل الى اشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد ان تحررت كوبا من اسبانيا .

تقرب اشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه أكثر من ثمانية أمتار وقد قال الفرنجة فيها : ليست الجيرالدا ولا سائر مصانع اشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هى التى اشتهرت بها اشبيلية البديعة ورددت المثل الذى سار فيها «من لم ير اشبيلية لم ير غريبة » بل ان ما اشتهرت به فى جميع اسبانيا مظاهر سرور الحياة فيها من مراقص وأفراح ومواسم وحركة البهجة الدائمة التى تنبعث من سكانها على الدوام .

جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين العالم أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه : ما أدرى ماتقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب

بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . وبهذا عرفت ان اشبيلية بلدة طرب وسرور فى معظم أدوارها ولطبيعة الاقليم دخل كبير فى هذا الشأن .

فى اشبيلية قصور كما فى قرطبة مصايف زرتها وزرت حدائقها وطوفت فى اعطافها وهى ملك لاناس من أغنياء البلاد تتداقل من سيد فيهم الى سيد ومنها ماجعل كما هو بيت بيلاتوس على الداخل اليه جعل يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل الى معهد من معاهـد العرب وغيرهم جعلا من النقود لتصرف منه على الترميم فليس فى البلاد ما يعنى الناظر اليـه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار الا اذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة التى قامت فى كل ناحية من انحاء البلاد التى ظل فيها حكم العرب نافذاً دهراً طويلا .

كانت اشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت فى أيدى الاعداء هاجر من مسلميها فقط زهاء ثلثمائة ألف مسلم الى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كانت راية بنى نصر تخفق . وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هـذا العدد وسكانهـا اليوم ١٤٨ ألفاً وتعد من المدن المتجددة وليس لها مسحة من القديم الا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها الى الحضيض .

مدينة غرناطة

١٥

بلد تحف به الرياض كأنه   وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة   ومن الجسور المحكمات سواره

هذا ماقاله ابن الخطيب في هذه العاصمة آخر ما حكمته العرب من أرض الاندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها بقاياهم وجالياتهم فظلوا فيها نحو قرنين ونصف قرن وعمروها فادهشوا العالم بعمرانها . جاءها جميع المسلمين الذين لم يحبوا ان يبقوا فى البلاد التى وقعت فى قبضة العدو يحتمون بملوكها من بنى نصر جاؤها ألوفاً ألوفاً من قرطبة واشبيلية وبلنسية يحملون اليها ما كان مبعثراً من الصنائع والثروة فى تلك الأرجاء .

قالوا ان غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له فى بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . وحكى ابن سعيد ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى أهل دمشق بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد أطل عليها جبل الثلج Sierra Nevada — كما

أطل جبل الثلج أو جبل الشيخ أو جبل حرمون على دمشق — وفى ذلك يقول ابن جبير :

يادمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجري وهى تنصب اليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى أن غرناطة فى مكان مشرف وغوطتها تحتها تجرى فيها الأنهار ودمشق فى وهدة تنصب اليها الأنهار وقد قال الله تعالى فى وصف الجنة تجري من تحتها الأنهار . أما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق باشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هى جرداء مرداء ولذلك كان منظرها أشبه بمنظر سهل البقاع اذا أطللت عليه من سفوح لبنان الغربي .

وغرناطة فى كورة البيرة من أشرف كور هذا الاقليم نزلها جند دمشق .

قال الرازى : وفحص البيرة أى سوادها وريفها لا يشبه بشىء من بقاع الارض طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .

وقال ابن الخطيب : وفحصها أى فحص غرناطة الافيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب وسمر الليالى قد دحاه الله فى بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله الانهار والجداول وتزاحم فيه الغرف والجنات فى ذرع أربعين ميلا ونحوها تنبو العين فيها عن وجهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب

والجبال المتطامية منه بشكل ثلثي دائرة قد علت منه المدينة فيما يلي المركز من جهة القبلة مستندة الى أطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال .

وينزل الثلج شتاء وصيفاً على جبل غرناطة وينبجس منه ستة وثلاثون نهراً كما تنبجس من سفوحه العيون . قال أبو الحجاج ابن حسان :

أحن الى غرناطة كلما هفت — نسيم الصبا تهدى الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل — بمنهل سحب ماؤهن هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها — وارض بها قلب الشجي مشوق
أغرناطة العلياء بالله خبري : — أللهائم الباكي اليك طريق ؟
وما شاقني الا نضارة منظر — وبهجة دار للعيون تروق
تأمل اذا أملت حوز مؤمل — ومد من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسكينة قد علت — وللشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شنيل فرنداً مهنداً — نضى فوق در ذر فيه عقيق
اذا نم منه طيب نشر اراكه — أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت — ثغور أقاح و الرياض أنيق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الاحمر من دولة بني نصر بالسيف تارة وبحسن السياسة مع الأحزاب المعادية أو بمحالفة القشتاليين الاسبانيين وبني مرين المراكشيين تارة أخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطناً لهم ونشط ملوكها الصنائع والتجارة

وعمروا الطرق والمجاري وتسلسل ذلك فيها فاتم الثاني مابدأ به
الأول وزينوا البلاد بابنية بديعة فأصبحت غرناطة أغنى مدينة
فى شبه جزيرة ايبريا وبحكمة أمرائها انبعثت منها شعلة المدنية
المغربية فى اسبانيا وأنست عنايتهم بالزراعة والصناعة عهد قرطبة
وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء وأصبحت
قصورهم مثابة العلماء والأدباء والفلاسفة « فصارت المصر
المقصود والمعقل الذي تنضوى اليه العساكر والجنود » ولما
استولى عليها الاسبان سنة ١٤٩١ م بعد ان حاصروها سبعة
أشهر فنيت فى خلالها ازواد المحاصرين من العرب وفنيت
خيلهم كما فنى كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات — كان
سكانها نصف مليون نسمة (نفوسها اليوم ٧٦ ألفاً) فانحطت على
عهد الاسبان بعد حين وأقفرت من السكان بما أصدره الملوك
الكاثوليك من الأوامر الخرقاء ولما اشتدت فيها وطأة ديوان
التفتيش الدينى ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العرب
حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجاً
متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب ان الأبراج بلغت الى مايناهز
أربعة عشر ألفاً وكان فى جوارها ماينيف على ثلاثمائة قرية عدا
ما يجاور الحضرة من قرى الاقليم أوما استضيف اليها من حدود
الحصون المجاورة (وكان أكثرها امصاراً فيها ما يناهز خمسين

خطبة تنصب فيها لله المنابر وترفع الايدى، وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء ما ينيف على مائة وثلاثين رحىً)

قصر الحمراء

١٦

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقياوكم ... ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

الحمراء ويقال لها القصبة الحمراء ومعنى القصبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهى مطلة على مدينة غرناطة اطلال الصالحية من سفح قاسيون على دمشق. سميت بالحمراء لاحمرار جدرانها بل للون التربة التى قامت عليها فى سفح جبل غرناطة ومعظمها مبنى بالخزف والكلس والحصباء . وفى قصبة الحمراء قصور العرب وهى ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الاكمة وقد بنى كل قصر منها فى زمن غير زمن القصر الآخر وبقى من القصر الأول شىء قليل وهى المقصورة والكنيسة وكان جامعاً بناه محمد الثالث من ملوك بنى نصر قال

فيه ابن الخطيب ان أعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء على ماهو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش ونخامة العمل وأحكام أنواع الفضة وابداع أثرها أنفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يتيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه .

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أودار السلطنة يقعد فيه للمظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة . والقصر الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلا وكان فيه دائرة حرمه ومساكنه الخاصة وفى هذا القصر صحن الاسود وهو فى الجزء الأوسط منه .

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ متراً بعلو ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه الى الشمال أمام المدخل وهى تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت فى كل نافذة وسطى أعمدة صغيرة من العجمى أو الشمسية تدفع حرارة الشمس . ونقش هذه القاعة من أجمل ما حوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطرى على الجدران فى قوالب من حديد وهى الى الحمرة والزرقة المشبعة .

أما فناء الاسود فهو صحن واسع فيه اثناعشر أسداً رابضاً من الرخام تحمل الاناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من أفواهها وتسيل الفوارات من أعلى الصحن الذى جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من أحواض بيوت دمشق

القديمة وكأن ابن حمديس الصقلي وصف هذه الدار عند ما وصف دار المنصور ببجاية فقال :

واعمر بقصر الملك ناديك الذي   اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره   أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه   فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسي «الصبيح» مع «المليح» بذكره وسما ففاق خورنقاً وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه   ما كان شيئاً عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الاولى   رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور ومابنوا   لملوكهم شبهاً له ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين أريتنا   غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم   ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه   حقر البدور فاطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر   ثم انثنيت بناظرى محسورا
وظننت انى حالم فى جنة   لما رأيت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت أبوابه   جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم   فغرت بها أفواهها تكسيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها   من لم يكن بدخوله مأمورا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة   فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه   فرش المها وتوشح الكافورا

ومحصب بالدر تحسب تربه مسكا تضوع نشره وعبيرا
يستخلف الاصباح منه اذا انقضى صبحاً على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه درعاً فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى سحر يؤثر فى النهى تأثيراً
قد صولجت أغصانها فكأنما قنصت لهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لواقع طيرها أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعدُّ من الفصاح فان شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موضع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبراً نظروا بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت فلك النهود من الحسان صدورا

خلعت عليه غلائلاً ورسية ... شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ... أبصرت روضاً فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى ... حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها ... فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقةٌ ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأن ماء اللازورد مخرم ... بالخط فى ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذى أضحى له ... ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت ... واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة ... منها ودمرت العدا تدميرا

وهناك قاعة الحكم وقاعة بنى سراج والمقصورة . تخرج من واحدة فتدخل فى أخرى فتخالك فى جنة عالية قطوفها دانية لا تستطيع وصفها لبدائعها الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة الاختين كانت على ما يظهر لجلوس نساء الملك في الشتاء ونقشها من أقصى ما بلغه النقش العربى من الاتقان وأهم مافيها المقرنص الذى حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف منها مجموع يصعب وصفه لجماله وقبتها أعجوبة البناء ومثال الصبر والعمل وكأنها كانت فى يد صانعها كالعجين يعمل فيها ماشاء من الصور أو كأنها خلقت خلقة ولم تمسسها يد بشر

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهى حديقة كبرى

فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قامت هندستها فى منحدراتها واكماتها وبسائطها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومغاور ومخابىء وفوارات وسياج تشبه المصايف الايطالية في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جملتها سروة يدعونها سروة السلطان عمرها نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت أمرأة أبي عبد الله مع ابن سراج

ولقد كان للسلطان أوائل المئة الثامنة فى غرناطة ما يناهز مائة جنة مثل جنة العريف على ما روى صاحب الاحاطة وناهيك بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك فى الحقيقة من أمارات المدنية والرفاهية .

ورد ذكر الحمراء لأول مرة فى واقعة حدثت سنة ٢٧٧ ﻫ فاعتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الاسبانيين فنجا الأمير الأموى بحيلة غريبة وخرج مخرجاً مدهشاً مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون الى هذا القصر. واشتهرت الحمراء على عهد دوله بنى نصر أو بنى الاحمر الذين استقلوا بأمارة غرناطة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وجعلوها عاصمتهم فأنشأ محمد بن الأحمر قصره الملكى بالقرب من السور والقلعة وفى عهد الامبراطور شارلكان جعل جامع الحمراء كنيسة فأبدلت صورة القصر الملكي القديم وأنشىء باب المدخل الذى يجتاز منه السور الذى طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة أبراج .

وقالوا ان فرديناند وايزابيلا الكاثوليكية عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتنما فرصة اختلاف العرب وأمرائهم وعزما على اخراج جميع العرب من اسبانيا وقد أمرا بترميم نقوشها الداخلية ورمما جدرانها وكان شارلكان على شدة حرصه على آثار الحمراء والابقاء عليها عمر مبانى ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تتم وأوردوا فى معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية ما نسب اليه من القول عند ما وقع بصره على آثار الحمراء : يا لشقاء من أضاع كل هذا .

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية : واذا وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التى بنيت على ذاك العهد فى القاهرة مثلا كجامع السلطان حسن الذى بنى سنة ١٣٥٦ م تبين الفرق العظيم بين البنائين فانك ترى لهندسة جامع القاهرة أمثالا كثيرة فى حين بنى قصر الحمراء على غير مثال محتذى ولا يوجد فى مملكة من الممالك قصر اسلامى مثل الحمراء وبقدمه لم يبن له شبيه مع انه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم الا أبنية العصر الأموي التى عثر عليها الباحثون فى بادية الشام شرقى بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسي فى سامرا والرقة .

وقصارى القول ان الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومتنزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه بهر الأبصار وفى مسالك الأبصار : ان الحمراء كثيرة المبانى الضخمة

والقصور ظريفة جداً يجرى بها الماء تحت بلاط كما يجرى فى المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من أبدع الجوامع حسناً وأحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة فى جملة ماعق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والآبنوس .

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها الى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم انك لا تعرف ما أدخلوه فيها من الاصلاح ولا تميزه عن الاصل الذى كانت عليه من قبل . ودام هذا الترميم فى الحمراء الى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفى سنة ١٥٢٢ أصيبت بهزة أرضية وفى سنة ١٥٩٠ بحريق في مطحنة بارود سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها فى القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابليون سنة ١٨١٢ قسما منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصناً وذلك عند جلائهم عن اسبانيا ثم أخذت همة حكومة اسبانيا تتجدد لاعادة الحمراء الى حالتها الأولى .

ويقول جوسيه ان ملوك اسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصومهم معاملة أعداء بل معاملة أصحاب . وبعد ان ذكر كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا الى مهندسين من العرب استخدموهم لترميمها قال : وأهملت الحمراء من بدء القرن السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود

بياطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرانيون وأسرات فقيرة فكانت الأوساخ فيها وفى جدرانها والناس يعبثون بما فيها وربما أصابها شيء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها وبليت بعض حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة اسبانيا على تعهد تلك القصور وارجاعها الى حالها وكانت الهمة فى هذا الشأن تفتر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك اسبانيا ودرجتهم من العقل والفهم .

وفى هذا القصر أو المدينة البديعة ماعدا الآثار العربية قصر شارلكان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناه من الجزية التى كان يتقاضاها من العرب للسماح لهم باجراء بعض شعائرهم . ومن أعمال شارلكان ابنية لم تتم لقلة المال فيما يظهر والغالب انه حاول بما أنشأه من الأبنية ان يطمس آثار العرب ليجعل لبنائه الرجحان فلم يتم له ماأراد وبقيت الحمراء أجمل مثال في القصور على مر العصور والدهور .

وليس فى الحمراء من الفرش والأوانى الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها أكثر من متر صنعت من تراب بالميناء ولها لمعان لازوردى وذهبى رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهى من صنع معامل غرناطة فى القديم

هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه إلي يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الأرض وكأن ابن حمديس وصفه اذ قال :

قصر يقصر وهو غير مقصر   عن وصفه فى الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة   تعشى العيون بشدة اللمعان
لايرتقى الراقي الى شرفاته   الا بمعراج من اللحظان
عرج بأرض الناصرية كى ترى   شرف المكان وقدرة الامكان
فى جنـة غناء فردوسية   محفوفة بالروح والريحان
وتوقدت بالجمر من نارنجها   فـكأنما خلقت من النيران
وكأنهن كرات تبر أحمر   جعلت صوالجها من القضبان
ان فاخر الأترج قال له ازدجر   حتى تجوز طبائع الأيمان
لي نفحة المحبوب حين يشمنى   طيباً ولون الصب حين ترانى
منى المصبغ حين يبسط كفه   فبنان كل خريدة كبنانى
والمـاء منه سبائك فضية   ذابت على درجات شاذروان
وكأنما سيف هناك مشطب   القته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجباً   من دوحة نبتت من العقيان
عجباً لها تسقى الرياض ينابعاً   نبعت من الثمرات والاغصان
خصت بطائرة على فنن لها   حسنت فافرد حسنها من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغة   وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أتيح لها الـكلام تـكلمت   بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة   فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فـكأنها   منها إلى العجب العجاب روانى
فكأنها ظنت حلاوة مائها   شهداً فذاقته بكل لسان

وزرافة فى الجوف من أنبوبها ماء يريك الجرى فى الطيران
مركوزة فى الرمح حيث ترى له من طعنه الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمى السماء ببندق مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نفطاً أحرقت فى الجو منه قميص كل عنان
فى بركة قامت على حافاتها أسد تذل لعزة السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسها فلذلك انتزعت من الابدان
وكأن برد الماء منها مطفئ ناراً مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها يطرحن أنفسهن فى الغدران
وكأنما الحيتان اذ لم تخشها أخذت من المنصور عقد أمان
كم مجلس يجرى السرور مسابقاً منه خيول اللهو فى ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه فى سمكها علوية وقبابه فلكية البنيان

كتابات الحمراء

١٧

تقرأ فى قصر الحمراء كثيراً من الآيات والمواعظ والأشعار زبرت على الحجر أو بالجص بالخط الأندلسى المشبك وهو أقرب الى النسخ المتعارف فى هذه البلاد الشرقية منه بالخط المغربى ومما

تقرأه على أحد الأبواب « أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافى الله فى الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية فشيد ذلك فى شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة جعله الله عزة واقية وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية »

ومنها « الملك الدائم والعز القائم » ومنها « الحمد لله على نعمة الاسلام » ومنها « عز لمولانا أبي عبد الله » ومنها « ولا غالب الا الله » ومنها « وما بكم من نعمة فمن الله » ومنها « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين » ومنها « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ومنها «فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » ومن الأبيات التى رسمت على احدى القباب فى مدح أبي الحجاج يوسف الأول

تبارك من ولاك أمر عباده فاولى بك الاسلام فضلاً وأنعما
فكم بلدة بالكفر صبحت أهلها وأمسيت فى أعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الاسار فأصبحوا ببابك يبنون القصور تخدما
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة ففتحت باباً كان للنصر مبهما

***

ولو خير الاسلام فيما يريده لما اختار الا أن تعيش وتسلما

الى أن قال :

فامنت حتى الغصن من نفحة الصبا　　وأرهبت حتى النجم فى كبد السما
فان رعشت زهر النجوم نخيفة　　وان مال غصن البان شكرك يمما

ومنها :

ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا　　وصيرت ما فيها لجيشك مغنما

وكتب فى قاعة السفراء

أنا محلاة عروس　　ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تعرف　　فضل صدقى فى مقالى
واعتبر تاجى تجده　　مشبهاً تاج الهلال
وابن نصر شمس فلك　　فى ضياء وجمال
دام فى رفعة شأن　　آمناً وقت الزوال

وكتب أيضاً

وحكيت كرسى العروس وزدته　　اني ضمنت سعادة الازواج
من جاءنى يشكو الظماء فموردى　　صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأننى قوس الغمام اذا بدا　　والشمس مولانا أبو الحجاج
لازال محروس المثابة ماغدا　　بيت الإلاه مثابة الحجاج

وكتب على القبة

تحييك منى حين تصبح أوتمسى　　ثغور المنى واليمن والسعد والأنس
هى القبة العليا ونحن بناتها　　ولكن لى التفضيل والعز فى جنسى
جوارح كنت القلب لاشك بينها
وفى القلب تبدو قوة الروح والنفس

وان كان أشكالى بروج سمائها ... ففي عدا مابينها شرف الشمس

ومما كتب أيضاً على بركة صحن الاسود وهو من نظم الوزير أبي عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين ابن الخطيب :

تبارك من أعطى الامام محمدا ... مغانى زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع ... أبى الله أن يلفى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها ... تحلى برفض الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر ... غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد ... فلم ندر أياً منهما كان جاريا
ألم تر ان الماء تجرى بصفحها ... ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه ... وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هى فى التحقيق غير غمامة ... تفيض الى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة اذ غدت ... تفيض الى أسد الجهاد الايا ديا
فيامن رأى الآساد وهى روابض ... عداها الحياء عن أن تكون عواديا
ويا وارث الانصار لا عن كلالة ... تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً ... تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

ومما كتب فى احدى القاعات أيضاً من نظم الوزير ابن زمرك

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا
تأمل جمالى تستفد شرح حاليا

أباهي من المولى الامام محمد ... باكرم من يأتي ومن كان ماضيا

ولله مبناه الجميل فانه ... يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للابصار من متنزه ... تجد به (؟) نفس الحليم الامانيا
تبيت له خمس الثريا معيذة ... ويصبح معتل النواسم راقيا
به القبة الغراء قلّ نظيرها ... ترى الحسن فيهامستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كفّ مصافح ... ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ... ولم تك في أفق السماء جواريا
ولو مثلت فى ساحتيها وسابقت ... الى خدمة ترضيه منها الجواريا
ولا عجب ان فاقت الشهب في العلى ... وان جاوزت فيها المدى المتناهيا
فبين يدى مولاى قامت لخدمة ... ومن خدم الاعلى استفاد المعاليا
بها الدهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جلاته بحليها ... من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت ... على عمد بالنور بانت حواليا
فتحسبها الافلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح اذ لاح باديا
سواري قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
اذا ما أضاءت بالشعاع تخالها ... على عظم الاجرام منها لآليا
فلم نر قصراً منه أنم نضرة ... واعطر ارجاء وأحلى مجانيا
مصارفة النقدين فيه بمثلها ... أجاز بها قاضى الجمال التقاضيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى ... دراهم نور ظل عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها ... دنانير شمس تترك الروض حاليا

ومن الأبيات اللطيفة

وجاد بها برد الهواء نسيمها فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية تقبس عنها الشهب فى الافق الأعلا
وانى بهذا الروض عين قريرة وانسان تلك العين حقاً هو المولى

وفى الاندلس الى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلاعها ومدارسها وتربها وجسورها وسدودها من التخريب لا تزال ترى بعض كتابات من النظم والنثر وبعضها مثال البلاغة والفصاحة لأن الاندلسيين عاشوا وتنعموا في أرض معتدلة الهواء جميلة الطبيعة فلابدع ان جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت فى كتابهم وشعرائهم آثار الابداع والاعجاب .

ذكرى مؤلمة

١٨

مضت أعوام تلتها أعوام ، والنفس تتحدث بالارتحال الى الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاهلها ، وتستبطن معاهدها ومصانعها ، فتتدبر ، وتذكر ، وتستفيد وتفيد . ولما اتاحت لها الاقدار ، بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ما كدر صفو تلك الذكرى ،

ذكرى التطواف في الاندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمى والاحجار ، واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب فى تلك الديار . .

اتفق نزولى غرناطة فى اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم الذى خرج فيــه أبو عبد الله آخر ملوك بنى الاحمر من عاصمة الاندلس ، وانتقلت أحكامها الى أيدى الغالبين من الاسبانيين ؛ والجرس يدوى فى كنيسة الحمراء دوياً متواصلا لا متساوقاً مدة أربع وعشرين ساعة ، احتفالاً بهذا اليوم الذى يعده أهـل اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من أسعد أيامهم الغر . احتفلوا به ضروب الاحتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة أدبها يومئذ شيخ مدينة غرناطة فى النزل الذى حللته فى جوار الحمراء واسمه نزل « واشنطون » على اسم واشنطون محرر أميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر استيلاء أجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .

تذكرت ذاك اليوم المشؤوم ، وقد رفع الصليب الفضى على أعلى برج فى الحمراء اشارة الى ظفر الاسبان الاخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد أخذ أبو عبد الله بن الاحمر يتحفز فى حاشيته ليخرج من الحمراء قبل أن يفتنه العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج الى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكى ، وأمه ترافقه وتقول له : لا تبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال .

كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوى وقد احتفلوا به حتى اليوم أربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على أعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية والدينية ، وقد مثلوا أفظع مأساة ارتكبتها أنفس متعصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا أرضهم وحلوا دياراتهم ، وهم فى رفعة ومنعة ، وغبطة وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم يحفزون أرواحهم ليوقظوها ، ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم فى سالف العصور وليعلموهم ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان كانت من باب تساط الجهل على العلم الا أنها دلت على أن الثأر لا ينسى ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان أجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الاندلس من أيام البؤس ، المشتملة بالحزن . المملوءة بالاستعبار ، يتناشدون فيه التعازى والمراثى ، ويتطارحون حديث محنة مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد .

قيل ان أناساً من جالية الاندلس فى بر العدوة ما برحوا الى اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه العز ، وأثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه فى جملة مخلفاته ، مفاتيح داره فى الاندلس على أمل أن يعود أولاده اليها ذات

يوم ويفتحوها وينزلوها . تذكار ان عده بعضهم فى باب الهزل ، وقيده فى سجل المستحيلات ، يحوى ولا جرم فى مطاويه أجمل العظات ، وأعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم على ماجل به خصوصاً فى البلاد التى يبعث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم فى الريف من بلاد مراكش ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً أقاموا خلالها مدنيات وانشأوا أمجاداً لهم ودولات .

ان العرب الذين أنشأوا من العدم مدنية الاندلس وقاموا فى عصور الظلمات بأعمال لا يكاد يصدق الناظر اليها انها بنت قرائحهم ، وثمرة عقولهم ، لولم تتناصر على ذلك أصدق الروايات ، لا يعجزهم اليوم ، والعصر عصر النور ، أن يقوموا بمثل ماعمله أجدادهم ، لو نفس خناقهم ، وملكوا زمناً قياداً نفسهم . بعض أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وأمامه اسبانيا والبورتقال اللتان ثأرتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا فى رقي العرب اليوم عدداً وعدداً ، ومضاء وغناء .

أضعف أمة اليوم فى الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل أقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغي الليل

والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقدس أعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يداً للمحسن اليها، ولا اساءة مجرم جان عليها.

العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوربا ونشأت لهم حكومات في شبه جزيرة أيبريا وجزيرة صقلية وسردانية فارتكبوا بذلك جناية في عرف أهل تلك الديار. أفليس من العدل ان تغتفر لهم هذه الهفوة أو الغزوة، في جانب ماحملوه الى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات. ومستحسن الآداب والأخلاق.

العرب حملوا الى الاندلس حضارة رائقة، ونظاماً محكما، أحلوهما محل الفوضى والتوحش، والسخافات والخرافات

تود كل أمة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها ان تحكم نفسها بنفسها وتمثل مشخصاتها ومقدساتها، فهل ينال العرب هذه الأمنية وهم ليسوا دون بعض الأمم الاوربية التي أخذت تتمتع الواحدة تلو الأخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم أوربا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيس ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد في الحضارة والنور.

١٩

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا أحداً من سكان البلاد الاصليين على الدخول فى دينهم ، بل أظهروا التسامح المقبول الذى يأمرهم به الدين الحنيف ، وأطلقوا للناس حريتهم في ذلك ، فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .

فعهد العرب اذاً فى الاندلس كان عهد تسامح وحرية ، لم تعهده من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحى الادعاته المفرطون ، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع ، ويدعون المسلمين الى دينهم ، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ، وساووهم فى جميع الامور بانفسهم .

مثال من لطف الحكم تعلمه الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة ، وهم فى عز سلطانهم ، والقول الفصل فى الارض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة .

هكذا فعل العرب فى أباذ قوتهم . فانظر ماذا صنع الاسبان يوم قوى سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلا عن شاهد العيان قال :

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التى تلى بلش وقرى جبل

منتميس وحصن قمارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين. وحملوا ماقدروا على حمله من أموالهم فنهم من جوزه العدو الى أرض العدوة ومنهم من أقام فى بعض تلك القرى ومنهم من صار الى أرض المسلمين التى بقيت بالاندلس.

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وباش وجميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين فى تلك الناحية ملجأ . وفى عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت فى صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفى سنة ٨٩٤ خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة.

وكان صاحب قشتالة كثيراً ما يستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم ، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التى يستولى عليها يبنى بأنقاضها مسورات في بضعة أيام كما فعل فى غرناطة . ومن جملة الشروط التى شرط أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم فى أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع مابأيديهم ولا يغرمون الا الزكاة والعشر لمن أراد الاقامة ببلدة غرناطة . ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله ، ويحمل أمتعته ، ويحمله فى مراكبه الى أى أرض أراد من المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثلاث سنين ، ومن أراد الاقامة

من المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ماذكر وكتب لهم بذلك كتاباً ، وأخذوا عليه عهوداً ومواثيق فى دينه مغلظة . وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما أخلوا غرناطة ودخلها الاسبانيون . ولما سمع أهل البشرة ان أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك الروم ودخلوا فى بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالاندلس .

ولقد صرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التى كانت فيه ، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ، ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، ومن المسلمين من طمعوا فى عناية ملك النصارى بهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعة وعزموا على المقام فى الاندلس .

ثم ان الملك أمر الأمير محمد بن على بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش من قرى البشرة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه ، ثم ظهر له أن يصرفه فبعث للمراكب تأتى لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الامير محمد ومن معه فى تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة ففاس من عدوة المغرب .

وأخذ ملك الاسبان بعد حين ينقض الشروط التى اشترطها عليه المسلمون ، وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الاذان . وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى ، وبعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فى دينه كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ، وامتنع بعض أهل الأندلس من التنصر كأهل قرية ونجر والبشرة واندرش وبلفيق ، فأحاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ صبيانهم وسلب أموالهم ونصرهم واستعبدهم ، وامتنع أناس فى غربى الاندلس من التنصر وانحازوا الى جبل وعر منيع ، فلما امتنعوا عليه وقاتلهم فلم ينل منهم منالا أعطاهم الامان على ان يجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين على ان لا يسمح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التى كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للاسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوى : التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهى سبعة وستون شرطاً عروة عروة ومنها اقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك الى أن آل الحال لحملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وكان أهل الاندلس

كثيرا ما يهاجرون الى بلاد الاسلام غير ان عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم (غير العرب من الاسبان) وأثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ، ونشأة أعقابهم بين أظهرهم الى ان كانت سنة ست عشرة وألف ، فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها ، وفى خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية (١) .

قال المقري : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها فى التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا فى بعض الجبال علي النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم اعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقى بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو الزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الخميادو — Aljamiado) ووجه التسمية أن العرب يسمون كل ما ليس بعربى اعجمياً وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتاليه أى الاسبانية باسم « الاعجمية » ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله فى اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت قالوا (الاخاميا) أو (الخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Alj amia) وعلامة النسبة عندهم do توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أى الاعجمى . (السفر الى المؤتمر)

طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم (١) ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .

***

هذا مارواه مؤرخو العرب واليك ماقاله مؤرخو الافرنج في هذه الكارثة : جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النية سنة ١٦٠٩ على نفي العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصراً خاصاً عصى على التمثل ولم ينزل عن مشخصاته ومميزاته على كثرة ما بذل فيليب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل مايمكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة الى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولانجاز وحدة اسبانيا وانقاذ البلاد من أولئك المحالفين سراً للاتراك والانكليز والفرنسيس على

(١) قال ابن ابي دينار ان المهاجرين من الاندلس الى تونس سنة ١٠١٧ ــ ١٠١٨ هـ كانوا خلقاً كثيراً فاوسع لهم عثمان داى في البلاد وفرق ضعفاهم على الناس وإذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن وبنوا أكثر من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد ، وذكر السيد حسن حسني عبد الوهاب من علماء تونس في رسالة بالافرنسية ذكر فيها أصول التونسيين انه دخل تونس في القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس لا أقل من مئة ألف أندلسي وأن الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم ملوك بني حفص فيها خطط القضاء والادارة والتعليم .

حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنري الرابع يضع خططه السرية فحاذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس أساقفة بلنسية يدعو الى طرد العرب مدعياً ان منهم تسعين ألفاً يستطيعون حمل السلاح واذا أغار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقعها. واذ كان القشتالى كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي اكسبتهم غنى بفضل اقتصادهم نادى رئيس الاساقفة ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين الى العدم والشقاء. وقال غيره انهم يدخرون على الدوام وعلمهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا. وعلى هذا كان من التعصب الديني ان قضي على العرب. ولما تعذر تنصيرهم رأوا ان الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادى والمعنوى يكون بطردهم فقوى نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الاشراف فى البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب فى بلادهم لانهم عاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ريعاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى أن يعمد اليها المجلس والحبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب فى بلنسية والاندلس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون ان غربوا (ايلول ١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا الى أفريقية حيث هلك عدد كبير منهم وثار أربعون ألفاً منهم فاعتصموا فى جبال بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت اسبانيا بهم على أقرب تقدير

من خمسمائة الى ستمائة ألف من أحسن العاملين فى الزراعة والصناعات وعجلت بذلك خرابها و بعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالى وفرح الرأى العام الاسبانى اذ ذاك بما تم فى هذا الشأن وعدوه من أعظم الاعمال التى قامت فى عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يا لسعادة ملك توفق الى أن يعمل هذ العمل من طرد العرب ، ولكن الامم خارج اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوناً بل وصفه ريشليو بأنه أفظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفى التاريخ العام أيضاً أن خضوع العرب فى اسبانيا قد أقلق ملوك الكاثوليك [1] وفتح أمامهم مسألة تطالوا الى حلها بما عهد فى عنصرهم من المضاء الوحشى وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا ان بعض مئات الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لا يعلم ماذا يكون منهم وهم على ما هم فيه من النمو يغتنون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الاسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ما عليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى أن ميكل لوكاس أعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح فى الكنيسة سنة ١٤٧٣ لاتهامه بالعطف على الاسرائيليين .

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لا يزال الى اليوم يدعى فى الرسميات صاحب العظمه الكاثوليكى Sa Majesté, Cataica

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر ألوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الاصلي أو كان ظاهره مسيحياً وقلبه وعاداته قلب اسرائيلي وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة وفي سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فآثروا الثاني إلا ان ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب الكردينال كسيمنس(١) الذي عمد الى تنصيرهم بأبشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الاولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فانهم لم يسلموا أيضاً واشتد ديوان التفتيش في مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون في عمل هذا الديوان الديني سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم .

وقال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس انه لا سبيل الى قيام وحدتها الا بنفي اليهود سنة ١٤٩٢ ونفي العرب (١٦٠٩) فسار مئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم

(١) هو مرشد ازابلا الكاثوليكيه ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من قضوا على العرب ومدنيتهم على ما مر بك في الفصول السابقة

فى الطرق عشرات الالوف فحرمت اسبانيا من أحسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين وأطباءها الحاذقين وقد قتل فى اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الدينى نحو مئة ألف انسان على الاقل ونفى منها مليون ونصف وبذلك خربت مدنية تلك البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مخالفاً للكثلكة فاضر ذلك بالصناعة الفرنساوية وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر بأحراق ثمانين ألف مخطوط عربى فى ساحات غرناطة .

سقوط الاندلس

٣٠

كان العرب فى الاندلس فى جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطئ طارق بن زياد وموسى بن نصير أرضها ، ورفعوا علم الامويين على ربوعها ، ودفعوا باعدائهم الى أقصى الشمال . يسكن الجلالقة وغيرهم حيناً إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة ، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلا

إليهم أو نزوعاً الى الاحتماء بهم لينالوا من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون أعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلت غارات الاسبانيين والبرتقاليين على البلاد التى نزلها العرب على عهد دولة بنى أمية أوائل المئة الخامسة وان كان الثوار لم ينقطعوا تماماً فى الداخل عن مجاذبة الامويين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هـذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الاندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزا كل واحد منهم على ما كان فى ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس ودعى نفسه ملكا فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور

مما يزهدنى فى أرض اندلس ... اسماء معتصد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخاً صورة الاسد

أو كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم فى اشبيلية والثانى بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة وأصبح العرب والبربر فى خصام مستديم والجميع فى خلاف مع أهل المغرب الاقصى من الجنوب وفى حروب مع بقايا الامم الاسبانية والبرتقالية من الشمال والغرب .

سقطت الاندلس لتشتت أهواء امرائها وأصبح بعضهم « ولا هم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه . ولهو يقطع به أيامه » واسترسلوا الى اللذات وركنوا الى الراحات ، وأغفلوا الاجناد واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون فى الملك ، ومنهم من قتل كبار قواده . ووسد الامور الى الضعاف فكثرت المظالم والمغارم ، وكثر الثوار مرات بشرق الاندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة « فضبط أشراف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فاتوا من ذلك بكل شنيعة »

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة وافراغة ولاردة وقلعة أيوب فى يد بنى هود وبلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغراى مافوق طليطلة من جهة الشمال فى يد بنى رزين وطليطلة فى يد بنى ذى النون وقرطبة فى أيدي أبناء جهور واشبيلية فى يد بنى عباد ومالقة والجزيرة الخضراء فى يد بنى برزال من البربر والمرية فى يد زهير العامرى ثم ابن صمادح ودانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) فى يد مجاهد العامرى وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة فى يد بنى الافطس وأصبح كل امرىء وما اختار من الالقاب والاسماء حتى ان المستعين لما جلس على عرش الخلافة قال للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا

بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة في أيامه منفردة ومثناة (أى الوزير وذي الوزارتين) أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الأمويين ، الى تسع عشرة مملكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليطلة وباجة ولشبونة وغيرها . ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع أمر الدولة الأموية ان تسقط الاندلس دفعة واحدة ولكن قدر الله أن يكون ملوك الجلالقة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة أهواؤهم وقيض للبلاد دولة أخرى جديدة قوية جاءتها من الجنوب أى من المغرب الأقصى وهى دولة المرابطين فافرج بها عن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الادفنش سنة ٤٨٠ وانتصر عليه وكانت البلاد الى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم عادت أحوال الاندلس فاختلت اختلالا مفرطاً آخر دولة أمير المسلمين على بن يوسف أوجب ذلك « تخاذل المرابطين وتواكلهم . وميلهم الى الدعة ، وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على اهل الجزيرة ، وقلوا فى أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس

وأمرائها وقد كانوا يدعونهـم الى نصرتهم بضروب الفصاحـة من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدوة .

لما اشتد الحصار على أهل اشبيلية سنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن سهل الاسرائيلي قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدوة ويستنصر بامراء العرب وذلك اذ كان العدو عليها قال فيها :

يامعشر العرب الذين توارثوا — شيم الحمية كابراً عن كابر
ان الاله قد اشترى أرواحكم — بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم — وبكم تمهد فى قديم الاعصر

الى أن قال :

والخيل تضجر فى المرابط عرة — الا تجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا — من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبي ، وعطلوا — من حلية التوحيد صهوة منبر

الى أن قال :

عند الخطوب النكر يبدو فضلكم — والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصاً جاءكم — عمداً بنفس الوامق المتحير
ولو انه نادى النصير لخصكم — ودعاكم يا أسرتي يا معشرى

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب فى الاندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب فى صقلية سنة ٤٣١ فانهم بعد ان دافعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسيين والفاكريكيين قسموا صقلية الى أمارات صغرى فانشأوا

جمهورية فى بلرم وأخرى فى سرقوزة وكان ذلك من أكبر الدواعى فى زوال سلطانهم . لا جرم ان ضعف الوازعين الدينى والمدنى من ميل القوم الى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربيــة فيهم وانتشار الفوضى فى أحكامهم كان منه ان تأذن الله بذهاب ريحهم لا كما يدعي بعض العامة من أن رواج سوق الشعر كان السبب فى زوال الاندلس وتبديد شمل أهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المسليات لان للعرب عامة غراماً به والأدب وسيلة الى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتقاليين فى المدة التي ارتفعت فيها أعــلام المسلمين على الاندلس يدرك أن القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة فى أكثر الأيام ولـكن تكتب الغلبة للفريق الذى كان جنده منظماً أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الاندلس يعتمدون على جنود لهم من الرقيق كالصقالبة وغــيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الاسبان يصرفون أيام شبابهم فى تعلم الضرب بالسيف والرمح لقتال أعدائهم [1] والعرب لا يجوزون أن يستبدلوا العادات

(١) وصف لسان الدين أمة قشتالة بقوله : وحال هذه الامة غريب في الحماية المــروحة بالوفاء والرقة ، والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمية ، عادة العرب الاول واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والزحف على الاقدام ، اميرهم ومأمورهم ، والجثو على الارض ، او الدفن فى التراب ، والاستظهار

الحربية باعمال الزراعة وما فى المدنية الراقية من التمتع والهناء فكان الناس فى الممالك النصرانية يضطرون الى الخدمة في الجندية ويرافق الاشراف ملوكهم الى الحرب مع أتباعهم .

أما العرب فلا يخرج أحدهم الا الى الجهاد واذا خرج فيكون خروجه على الاغلب متكارهاً لمدة معينة فكانت أوضاع الاسبان حربية محضة تكون لهم بها الغلبة فى القتال أما فى البحر فكان العرب أشد بأساً وأقوى أساطيل ولهم فى كل فرضة من فرض الاندلس سفن معدة وقد أقاموا لهم دور صناعة في المرية وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفناً جديدة تمخر فى عرض البحار .

استولى الملوك من بنى الأحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام فى ذلك وهم الذين استولوا على بقايا مجد العرب بعد ان انتصر سلطانهم سنة ٦٦٣ هـ علي الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلداً من جملتها اشبيلية ومرسية ثم عاد العدو وأخذ بمخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم فى الداخل على الجملة ولما دب الهرم فى جسم دولتهم وقوى الاسبان باتحاد ازابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك الاراغون أي باتحاد المملكتين

فى حال المحاربة ببعض الالحان المهيجه ، ورماتهم قسيهم عربية جافية ، وكلهم دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع ، ورماتهم يسبقون الخيل فى الطراد ، وحالهم فى باب التحلى بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اه

الرئيستين فى الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق أمامهم الا التسليم والاستسلام وفى ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

جبل طارق وطنجة

٢١

كان جبل طارق الذى نسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس وهو المكان الذى بلغه فى جيشه أواخر المئة الاولى بأيدى العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم عاد الى الاسبان ولبث فى حكمهم الى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز عليه فى سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان فى سنة ١٧٠٤ — ١٧٧٩ بمعاضدة الاسطول الفرنسوى للاستيلاء عليه فلم يستطع الاسطولان الفرنساوى والاسبانى تخليص هذا الحصن من أيدى الانكليز .

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ متراً وهو متصل مع القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة. وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحنوها بالمدافع فجاءت من أحصن ما فى العالم من الحصون . فهو فى الحقيقة قطعة من أرض اسبانيا ولكنه انكليزي الحكم والنظام يشرف على البحرين المحيط

والمتوسط ويأخذ بمخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث أوربا وأميركا وأفريقية .

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ ألفاً ماعدا الحامية الانكليزية وأهلها مزيج من شعوب أوربا وأميركا وآسيا وأفريقية وكذلك ابنيتها مزيج من طراز الابنية عند الامم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية . ولا يحق اليوم لغير الانكليزى التبعة ان يقتنى ملكا في هذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بنى فى الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهى أشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر .

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل اسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة .

وعلى بضعة أميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدوة من ثغور الغرب الأقصى وأول أرض أفريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح انتقالا فجائياً من مدنية راقية الى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق .

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الانكليزية التى تسافر من

جبل طارق الى مارسيليا فى يومين فزرت طنجة وطوفت فى ارجائها وسكانها اليوم نحو أربعين ألفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتقاليين والطليان والفرنساويين وهى من المدن التى استعمرها الفينيقيون فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ما تداول عليها من الأمم بعد الاسلام فقد استولى عليها البرتقاليون سنة ١٤٧١ م والانكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيس سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذالك الحين فى يد المراكشيين وهى الآن مشاع لكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيس والاسبان كما يتنازعون على السبق فى حماية بلاد الغرب الأقصى . ويقيم فيها كثير من معتمدى الدول والسلاطين المخلوعين من أمراء المسلمين فى الغرب الاقصى أمثال مولاى عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المراكشيين مازالوا فى هذا الثغر وما وراءه من البلدان على تصلبهم فى عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من أوربا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لا يفصلهم عنها الا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلا « وهو أضيق موضع فيه وأوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلا » قال الفقيه المرادى المتكلم القيروانى بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله الى مدينة سبتة :

سمعت التجار وقد حدثوا ... بشدة أهوال بحر الزقاق
فقلت لهم قربونى اليه ... انشفه من حر يوم الفراق
فلما فعلت جرت ادمعى ... فعاد كما كان قبل التلاق

علم المشرقيات فى اسبانيا

٢٢

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه بعضاً ولا تدوم امة الا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة [1] عربيـة أنشئت فى طليطلة اوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين على مناحى العرب وفى سنة ١١٣٠ أنشأ رئيس اساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة فى هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية فى اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان تحررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وأدرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضى القديم وانهم فى حاجة بعد الى أن يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم الا لداء من العرب فحاول الفونس العاشر أن يعمل لاسبانيا المسيحية ماعمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن مافى الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة ١٢٥٤ فى اشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسيه رونقها

---

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع .

العربي الصرف واستدعى الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهى أقرب الى التسامح من المدرسة الاولى اذ كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني.

كان لليهود يد طولى فى نقل العلوم من العربية الى اللاتينية لأن المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا الى التعصب . بددوا كتب الفلسفة وأحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من أوضاع مدنية العرب فى الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع أحد الدومنيكيين أول معجم عربى باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفى سنة ١٣١١ — ١٢ امتدح البابا اكلمنص الخامس فى أحد المجامع الدينية من انشاء درس لتعليم العربية فى مدرسة صلمنكة وفى أواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة فى نشر اللغات الشرقية بين أبناء رهبنتهم ومنها العربية وأنشأ صاحب أراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية فى ميرامار وأنشأ المجمع الدينى فى طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية أشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولا سيما الفرنسيسكانية الى القرن

الثامن عشر فى أسبانيا هى القائمة بدعوة المستشرقين الى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه .

ولم تنل مدرسة صلمنكة شهرة طائلة فى أوربا حتى غدت احدى المراكز العلمية الأربعة وهى باريز واكسفورد وبولون الا أنها بتأثير العلم العربى أقامت على أساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن فى مدرسة صلمنكة في أواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية وأخرى للعبرانية وثالثة للعربية فأصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب .

ولما اعلن الاسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل أخذوا ينصرون المسلمين بالاكراه وفى سنة ١٥٠١ — ٢ طردوا من مملكتى قشتالة وغرناطه كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لانها افسدت أفكارهم وزهد المسيحيون فى علوم المسلمين وقام فى أذهانهم انها خطر عليهم .

صدر أمر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان أحرق فى ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك فى نصف قرن ولولا المترجمات منها

الى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد . وأخذ ديوان التفتيش الديني على نفسه ابادة كل أثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء أسفهم الا سراً وفى الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أى المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق أولئك المتنصرة بقديمهم.

وفى سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وأرادهم على أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية وعن أجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه فى سواد أبناء المذهب الكاثوليكى ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية فى اسبانيا غير ذكراها وزهد القوم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى تعليم العربية فى اسبانيا اللهم الا على طريقة افرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من يتعلمها بالالحاد بعد ان كان أهل الطبقة العليا من الاسبان أيام عز العرب يحلون باقوال فلاسفة العرب كلامهم ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لا درس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من أمارات الظرف والكياسة .

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان فى أشبيلية من أساليب تعلم العربية الا أثر ضئيل وأراد شارل الثالث أن يعيد الى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية

ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية ويحق للنصف الثانى من القرن الثامن عشر ان يباهى باساتذة متمكنين من أسرار العربية فى اسبانيا .

ولما ادخل الاصلاح الى الكليات القديمة فى أواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس فى جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين او الملك أو الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التى كانت لها فى شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثانى عشر الى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها فى قائمة دروس التعليم العالى وأخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة فى مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمى التاريخي ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة فى كاتدرائية طليطلة . دع مكتبة خزائن كايانكوس وكودرا وريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات .

والعربية اليوم تدرس رسمياً فى كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصلمنكة وبلنسية وأشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا فى العاصمة وبعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ أواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية

كثيرة متعلقة بتاريخ الإندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التى اشتغلوا بها ومنها الجيد وأكثره مملوء بالاغلاط والتحريف وهو دون مانشره الهولانديون والجرمانيون والبريطانيون والطليان من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان .

وأنت ترى ان الاستشراق العربى كان الدين هو الداعى اليه كما كان فى معظم بلاد أوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول فى شبه جزيرة ايبريا أى فى اسبانيا والبرتقال قليل . وفى جامعة لشبونة عاصمة البرتقال درس عربي اليوم ومدرسة الاستاذ لوبيس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع فى البرتقال اليوم كما أن الاستاذ آسين مرجع الاسبان فى مجريط وكلاهما عضو فى المجمع العلمى العربي .

اسبانيا بعد العرب

٢٣

من القى نظرة بليغة على تاريخ شبه جزيرة اسبانيا يوقن ان الانحطاط دب فى اهلها منذ قرون وان تراجع امرها يرجع تعليله الى امور كثيرة افاض فيها الاجتماعيون والمؤرخون والحكماء ، وانحطاط الاسبان كيف كانت الحال مؤكد لا يختلفون هم فيه ومنهم

، من يقول ان منشأه حر وبهم مع العرب وفتح امريكا فنفدت قوة الامة فى اعمال هى الجنون بعينه . ويقول ـ القشتاليون انجلوس ملك غريب على عرش اسبانيا انتج سلسلة من المصائب ما زالت حتى اليوم تجرع صاب عذابها . ويزعم بعض مؤرخيهم ان الاصل فى انحطاطهم كون البلاد قاحلة والطبيعة لم تساعدها على النمو . ويدعي آخرون ان السبب فى بقاء اسبانيا منحطة ميل الشعب الى المقاومة والمشاكسة وغرامه فى الاستقلال بحيث انقلب ذلك الى فوضى وغدت بلادهم مسرحا للفتن الاهلية وشغلت برد غارات المغيرين عليها ويدعى فريق آخر ان هذه الاخلاق فى الاسبانيين وتحمسهم فى رد غارات العدو وتغنى اهل كل صقع بمزاياهم وركونهم الى العزلة والاستئثار ـ كل ذلك من امارات الوطنية فيهم وان كانوا فى الاكثر اذا شكا عضو من أعضاء البلاد او قطر من اقطارها لايشاركه فى شكواه جاره ولا اخوه . وعماد الوطنية عندهم هو الدين الكاثوليكي يسيرون بسيره ويندفعون بعوامله . ولا شأن فى اعمالهم للآراء التى تمليها المصلحة وتنبعث من عظمة الامة . وينسب بعض الكتاب الذين كتبوا عن اسبانيا عقب انحلال مملكتها الاستعمارية السر فى انحطاط امتهم الى تشبعها بدين مملوء بالخرافات ممزوج بالتصرف ويجيب آخرون ان ضعف الوازع الديني فى قومهم هو الذى كان به مبدأ انحطاطهم وما قام مجدالا منه قديما الا بسائق الدين فلما قل المعتقدون كثر المنحطون .

ويقول فوليه : ان اسبانيا مؤلفة من عدة ممالك وفيها الاهوية المختلفة فالشمال منها اوربي والجنوب اشبه بقطر افريقي — فيه الليمون والبورتقال والتمر والرطب وانها فى بعض اصقاعها تشبه روسيا حرها مدة ثلاثة اشهر من السنة كحر جهنم وشتاؤها تسعة اشهر وقد فطر الاسبانى على شيء من القسوة تشبه لفحات جباله وفيه جفاء كطبيعة تربته ومحرق شمسه وانه ظل افريقياً وان كان يعد فى الاوربيين

ومزاج الاسباني صفراوى عصبي ومعنى ذلك ان في باطنه حرارة شديدة تحرقه فيعرف كيف يقمع هواه المذيب وان في استطاعته ان ينام على احقاده طويلا حتى اذا عرضت له الفرصة وثب ، وهم قساة على الحيوانات الاهلية قساة على الانسان قساة على انفسهم . وقد جاءتهم القسوة من اعتيادهم النظر الى الانسان يحرق بالنار ايام ديوان التفتيش الدينى وما زالت القسوة متسلسلة فى دمهم يساعدها ايضا اعتياد الاسبان صراع الثيران واذا ادعى بعضهم ان صراع الثيران يورث النشاط — ومتى كانت قسوة القلب تورث نشاطا — فان هذا الصراع هو التوحش بعينه وليس من الضرورى اهراق الدماء حتى ينشأ ابطال

الاسبانيون صادقون مخلصون اذا أعطوا عهدا وعندهم شعور بالاحترام والشرف وهم كرام يحبون اقراء الضيفان وربما زاد هذا الخلق فيهم فى الجنوب اكثر من الشمال ولكن لا يجزم بانهم عيلون كثيرا الى الانسانية

اما تعصبهم فبه يضرب المثل وكان منه فساد أمرهم . قالوا ان التعصب بالنسبة للدين بمثابة الغيرة بالنسبة للحب واذ كان الاسبانى غيوراً جداً فى حبه فهو متعصب جداً لدينه ومع هذا فقد رأينا الايطالى غيوراً فى حبه ولكنه غير متعصب فى الدين . قال فوليه ان أغناس دى لويولا (مؤسس الرهبنة اليسوعية) على ماكان فيه من المضاء والفتوة قد ساعد بدون أرادته على أضعاف بلاده لأن فساد آداب جماعته من الاسبان ومراقبتهم كل ضرب من ضروب الحرية كانا من الاسباب التى قضت على النفوس بالانحطاط . قال ولم ينشأ فى اسبانيا فلاسفة لأنه لا يتأتى تحت سلطة ديوان التفتيش أن يتفلسف المرء بل يكون نصفه لاهوتيا والنصف الآخر فيلسوفاً والى اليوم لا يزال الحال كذلك ليس للفلسفة من يمثلها في اسبانيا فى الحقيقة ونفس الامر

لاجرم أن الاسبانى شأن كل أمة انحطت يحتاج الى دراسة تاريخه دراسة تدبر وهو اليوم متأخر جداً فى مضمار العلوم والتربية . وقد غرس فى العنصر الاسبانى الصبر والثبات وحب الأقدام . ودعا اختلاف طبيعته الى تخالف السكان فى المناحى والمنازع وكان كل جزء من البلاد قبل انشاء الخطوط الحديدية والطرق المعبدة منعزلا بذاته ضمن حدوده فاضطرت الشركات

الى فتح زهاء مئة تمق طويل فى انحاء البلاد حتى يتيسر ربط الأجزاء المهمة بعضها ببعض وكذلك الحال فى صعوبة المواصلات البحرية فان فرضها وسواحلها على كثرتها وطولها صعبة المجاز على السفن . ومع هذا رأينا أمماً كثيرة غزت شبه جزيرة ايبريا مثل الايبريين (الذين سميت الجزيرة باسمهم) والسلتيين والفينقيين واليونانيين والقرطاجنيين والرومانيين والسوافيين والفانداليين والوزيغوطيين والعرب والاسرائيليين والسوريين والبربر والمرابطين والموحدين

ولم تمتزج تلك الشعوب التى دخلت اسبانيا على توالى القرون فى بودقة واحدة وكان السكان على الدوام متخالفين فى طبائعهم تخالفهم فى بيئاتهم بل لم تتم وحدتهم على ما هنالك من صلات ضعيفة سياسية لان أفراد الامة لم يتعاونوا كلهم على تأليف هذه الوحدة . فانا نرى البغضاء قد تأصلت فى قلوب الاسبانيين فليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط بل بين أهل المدن المتجاورة شأن الأمم المنحطة . كان الاسبانيون وما زالوا وابن قشتالة منهم ينفرون من ابن الاندلس ويحتقرونه وأهل برشلونة يبغضون أهل بلنسية وأهل طرخونة يكرهون أهل رية وأهل مرسية لا يميلون — الى القرطاجنيين وأهل قادس يمقتون أهل شريش وهكذا يستعدى أهل كل مدينة أهل المدينة الأخرى ولولم يقم منهم ملوك عقلاء يضمون بالقوة شملهم ويدفعون العرب

عن بلادهم لما قامت لهم قائمة وقيل لولم ينضو أمراء النصرانية في تلك الحقبة ـ من الزمن تحت لواء واحد لكان الخطر على النصرانية نفسها وكان الواجب أنه لايتأخر اتحاد الاسبانيين حتى يقوم الملوك المتأخرون بلم شعثهم لولم يكن أمراؤهم مختلفين بينهم وكذلك كان يصعب زحزحة العرب عن سلطانهم لولم يكونوا على اختلاف بينهم أيضاً.

ولقد كان أهل قشتالة يرون لسلامة اسبانيا ـ وهم الذين قاموا بأعمال مهمة فى جمع سلطان الاسبان وطردوا العرب من الاندلس أن يقطعوا شأفة المخالفين لهم فى الدين من العرب النازلين فى اسبانيا ولولم تفتح أميركا وتشتغل اسبانيا فى حرب فرنسا وانكلترا وتبدد قوتها فى الممالك التى ضمت اليها من طريق الارث لتم لها ماتريد من فتح مراكش.

لم تستفد اسبانيا من فتوحها لأن ملوكها كانوا يدبرون أمرها على هواهم ويربطون أهلها برباط الدين ولكن هذه الوصلة لم تقو على نزع الفوارق فى طبائعهم وعلى كثرة تحمس الفرد للوطنية لا تتعدى حماسته اسوار بلده خلافا للفرنسيس والانكليز والالمان والطليان وغيرهم من الامم الكبرى فانها نهضت متحمسة حماسة ناشئة من نصر أحرزته وغلبة تمت لها على حين ترى اسبانيا لم تحرز مثل هذه النتيجة من انتصاراتها فى بلادها وفى الخارج

وأن فقد الشعور الوطني هو أهم عامل في انحطاط اسبانيا تضاف اليه أسباب سياسية واقتصادية .

***

لا مراء في أن النسبة مفقودة بين المشاريع التي قام بها ملوك اسبانيا وبين موارد البلاد الحقيقية من حيث الاقتصاد والجندية . ومن الجنون أن يعتقد أن التوسع في الفتوح في الخارج ينمي قوى المملكة . ومن أبشع الجنون أن يعتقد ملوكهم أن مناجم الذهب في العالم الجديد أميركا لا تنضب أبداً وأن الذهب المجلوب من أميركا يغني الامة على وجه الدهر . قال فوليـه : وكان في افتتاح الاسبان أميركا باعثاً على تقلقل النفوس وتزعزع المبادىء فأصبح الناس يرقبون الفرص للاغتناء ونسوا أن الثروة بالعمل والاستمرار ولذلك قل فيهم المتشردون اذ رأوا كثيرين منهم اغتنوا بالمصادفات وآخرين افتقروا كذلك . وهكذا ماتت الارادة في هذا الشعب . وما تاريخ استعمار اسبانيا الامثال وأي مثال لشعب ينتحر .

ثم ان ديوان التفتيش قرض بيوتاً وأسراً كانت مباءة ذكاء وجراثيم فهم وعلم فبقضائه عليها قضى على الصناعات والفنون والآداب . وكانت اسبانيا تستعمل في دعايتها للدين « النار والحديد » فتسطو على الوجدانات المتحمسة وتقضي على الارادات القوية ثم تستكثر من الرهبنات فتكثر من العزب فتزيد العقم

ويقل النسل ثم ان حروب شارلكان الجنونية ولا سيما فتح أميركا حرم البلاد أهل النشاط والاقدام وأضعف طبقة الاشراف بل قرض العالم من القرى فاقفرت وأغلقت بيوت برمتها وان طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ وجميع سكانها الذين كانوا من أصل عربي بين سنة ١٦٠٩ - ١٦١٠ قد حرمها شعباً عرف بهمته ومضائه فخلت محل العاملين حثالة من الناس كانت أقرب الى الكسل المغروس فى سكان الجنوب المعروفة باحتقار الاعمال اليدوية وكثر التسول وحظر رجال الدين الاستحمام لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم فكثرت الأمراض الجلدية وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاغتسال مخافة أن يفشو أمرهم ويقعوا تحت طائلة القصاص.

والظاهر أن الاسبانيين لم يكن لهم فى دور من الادوار ذوق فى الاشغال اليدوية وكانت بلادهم قليلة السكان قبل نزوح العرب منها فما بالك بها بعدهم ومدنها قليلة وكذلك العامر من قراها فهى من هذه الوجهة لا تشبه فرنسا ولا ايطاليا بحال من الأحوال . وبعد فاذا كانت الصناعة والتجارة قد بلغتا درجة حسنة فى بعض العصور والامصار فى اسبانيا فذلك بفضل العرب والغرباء عن البلاد . وما زالت معامل اشبيلية وبرشلونة مشهورة بنسيج صوفها وقطنها وحريرها وأساحة طليطلة وجلود قرطبة معروفة منذ عهد العرب هناك . فللغريب الى اليوم اليد الطولى

على اسبانيا ومعظم المشاريع العمرانية فيها لجماعة من الانكليز والفرنسيس والالمان وغيرهم .

اذا اشتهر عن الاسبانى أنه من نسل أمة حربية فلم يعرف عنه أنه من أمة جندية . وشتان بين من يحارب منفرداً لحساب نفسه وفائدتها وبين من يقاتل صفوفاً صفوفاً بانتظام لنفع وطنه وخدمة غرض شريف ترمى اليه أمته فقد كانت عدة المحاربين تحت العلم الاسبانى من غير الاسبان فى حروب ايطاليا والفلاندر تسعة أضعاف المحاربين من أهل العنصر الاسبانى وهكذا فى كثير من حروبهم فى جنوب أميركا وفى جزائر البحر .

كان رائد حروب الفتوح الثاني La Reconquista الفكر الدينى فى الامة وموردها اموال الرهبان وبركات البابا الرسولية وتنشيط الاشراف فلما اراد الاسبانيون ان يعملوا خارج تخومهم خانهم القوى وأعوزهم المال والرجال ولقد ذكر العارفون بان ماساعد على انحطاط اسبانيا اكثر من فقر تربتها وبوار اراضيها وشقاء سكانها واوهام حكامها وفتح امريكا وطرد العرب واليهود منها فخرمت بطردهم موارد كثيرة من الرجال والعقول الذكية المفكرة — ان ماساعد على انحطاطها فى الاكثر كان اعتزالها الدينى الذى فصلها عن بقية العالم واهم ذلك رسوخ اقدام قوميات فى ارضها ولم يشعر الاسبان فى زمان من أزمنة تاريخهم بانهم متضامنون ولذلك كانت الامة تدفع المال لرجال تستأجرهم جنودا حتى اذا ظفروا

فى القاصية تقيم الاعياد والحفلات تكريما لهم وادهش من ذلك ما قال احد المؤرخين : بين اكثر أمم اوربا عقيب النهضة تحاول ان تكسر قيود الرق الدينى كانت اسبانيا تقاوم كل فكر اصلاحى يرمى الى التجدد وتقاتل فى ارضها وخارج ارضها كل مايراد منه تحرير العقول من الاستعباد فكانت اسبانيا تساعد البابوية الايمن فى الضرب على ايدى المجددين والمصلحين الذين كانت تنبعث انوار عقولهم فى الغرب بسرعة البرق

وكان من جهاد اسبانيا ان فقدت جميع املاكها ومستعمراتها الخارجية عن حدودها الطبيعية وان خرجت عنها البرتقال وكادت بلاد السكتلانكيين ان تودى معها واقتطعت انكلترا من ارضها جبل طارق وجاءت عليها ادوار قويت فيها الضغائن واشتد فيها الفقر وكثرت الضرائب ولا يستثنى من هذه الا رجال الدين وطبقة الاشراف حتى كادت اسبانيا ان تقسم اجزاء كما قسمت بولونيا قديما

وكلما قام المصلحون فيها أذوا وقتلوا حتى كان احد ملوكهم يقول ان الاسبانيين كالاولاد يبكون كلما حممتهم وغسلتهم . وما زالت البلاد على الرغم من حكمها الدستورى فى نزاع بين القديم والحديث ولا سلطان فيها الا لرجال الدين والجيش وبعبارة ثانية لرجال الدين وحاشية الملك الذين يخدمون على الاغلب مصالحهم الشخصية . اما النواب فيوشكون ان يكونوا اسما بلا

مسمى وليس هناك رأى عام ولا جماعة من المنتخبين والنواب قد ينتخبهم الوزراء ويقرهم الناس وتكاد اسبانيا لاتشبه بادارتها الحكومات النيابية الا قليلا وذلك لان كبار الموظفين الذين يختارون اعضاء لمجلس الشيوخ ـ كالقواد والحكام ورؤساء الاساقفة قد اعتادوا ان لا ينظروا المسائل التى يبحثون فيها الا من حيث مصالح طبقاتهم الخاصة وهكذا بقية طبقات الاشراف والمنتخبين من الولايات لايجرون الا على هذاالمثال . اما القضاء فيكاد يكون هزؤا والدعاوى تكلف نفقات باهظة أكثر من كل ممالك أوربا والذى يوكل اليه جلب الجناةقد يفسح لهم في الاكثر مجال الهرب مقابل مال قليـل لأن الدرك يتقاضى راتباً ضئيلا فهو شريك المجرمين والجناة والمتهمين والبلاد أبداً غاصة بجمهور منهم وقد قال أحـدهم : ان اسبانيا لايحق لها أن تحسد مراكش على قضائها لان القضاء فى الأولى هو كالقضاء فى مراكش الى الانحطاط والسقوط . وسوء الاستعمال محسوس الأثر فى كل عمل من أعمال الحكومة هناك .

لايقـل عمـل العمال فى دواير الحكومات الاوربية كما يقل فى حكومة اسبانيافان من موظفيها من لايعمل أكثر من ساعتين ومنهم من يأتون خلسة الى دوائرهم ثم يذهبون حالا دون أن يأتوا بعمل . ومتى فوضت الوزارة الى أحدهم وزارته لا تطول أكثر من أشهر — لا يفكر فى عمل مفيد بل يحرص على تعيين

أقاربه والمخلصين له فى المناصب . ومن أقبح قواعد الادارة فى اسبانيا تأسيس اللامركزية الشديدة فترى الولايات لا تستطيع أن تعين شرطياً ولا حارساً بل أن حق التعيين من شأن العاصمة مجريط ولا بسط المسائل ملفات من الاوراق طويلة عريضة لا ينظر فيها أشهراً وصاحبها يذوب كمداً على نجاز عمله . واذا خلت وظيفة التدريس فى احدى مدارس الولايات لا يعين الخلف قبل مضى شهرين أو ثلاثة فتغلق المدرسة خلال هذه المدة ويتشرد الأولاد .

وليس للاعمال الصحية أثر في غير المدن أما القرى والدساكر فانها محرومة من كل نظام صحي . وتخف النبعة الملقاة على عاتق الموظفين بنسبة أعمالهم ولا ترى فى الحقيقة أحداً يسأل عن عمله والشعب لا يهتم الا لارضاء سادته ورؤسائه وقلما يثور للمطالبة بحق له الا اذا فقد الخبز أي بسائق الجوع ولا يثور دفاعاً عن أفكاره وأمانيه الوطنية الشعب الاسبانى ملكى يتفانى فى الحكم الملكى كما هو مغموس فى الدين وكان لرجال الكنيسة عندهم فى كل دور شأن وأي شأن . وجميع الحروب المدنية التى نشبت فى اسبانيا لم توقد جذوتها الا باسم الدين فاذا بدأنا بحرب الاسبان مع العرب لانقاذ اسبانيا من حكم هؤلاء نجد العامل الاكبر فيها — اختلاف الاديان . وهكذا مقابلة الاسبان للاصلاح الدينى وحرب الاستقلال وكانوا يحاربون فيها الفرنسيس لالحادهم أكثر من حربهم لهم لانهم أعداؤهم الذين قهروهم وغلبوهم

على أمرهم ولولا حماية الاسطول الانكليزى ما وجدت البرتستانتية لها منفذا فى بعض مدن الساحل من اسبانيا

لئن كانت المرأة فى اسبانيا لا شأن لها فى الشؤون العامة وتعد ذات مقام منحط بخلاف ممالك اوروبا الراقية فلها شأن فى بعض المسائل التى يهتم لها رجال الدين فيسوقونهن الى التدخل فيما ليس من خصائصهن توصلا الى مقاصد لهم . ومقاصد الرهبان هنا كثيرة لأن الرهبنات تملك نحو ثلث أراضى المملكة ولها عقارات وشركات منها ما تستثمره علناً ومنهـا ما تستثمره بالواسطة . وسلطة الرهبان وثروتهم تزيد مع الايام قوة واستحكاماً . وفى اسبانيا زهاء سبعين ألف راهب يتقاضون من ميزانية الحكومة أربعين مليون بستاس أي ثمانين مليون فرنك فى السنة علاوة على ما لهم من ريع أملاكهم ولقد سألت أحد الاسبانيين ذات يوم عن الصناعات الرائجة فى بلادهم فأجابنى بين الهزل والجد : عندنا ياسيدى ثلاث صناعات رائجة وهى صناعة الرهبان وصناعة النسوان وصناعة الثيران (١)

(١) كان صراع الثيران الى القرن السادس عشر خاصاً بالفرسان يعمدون اليه للتمرين الحربى أو للاحتفال بأعياد وكان فيه خطر على حياة المتصارعين اذ يقضى على الفارس أن ينحر الثور برمحه وفى أوائل القرن الثامن عشر أصبح صراع الثيران أقل خطراً وجعلته الحكومة للفرجة وانشأت له معاهد وهى تربو على مائتى معهد فى اسبانيا لها أوقات معلومة فى السنة ويفتخر من كان ثوره عاصيا على الصراع والنزال اذ يدل على مبلغ عنايته وتربيته أما اذا صرعه فحدث عن تفاخره ولا حرج . وقد أقامت الحكومة ميادين لصراع الثيران تتسع

كانت اسبانيا فى اوائل القرن الماضى امة زراعية يحكمها الرهبان والقضاة فاستحالت من سنة ١٨٠٣ الى ١٨١٥ امة حربية وكان للجيش المقام الاول فى كل عمل حتى صار ينفق ستون فى المئة من ميزانية الدولة على الجيش . وأتى عليها زمن في اواخر حرب كوبا وعندها ٤٩٩ قائدا و٥٧٨ زعيما وزهاء ٢٣ الف ضابط اى نحو خمسة او ستة اضعاف مايلزمها لجيشها المنظم . فاصبحت القوتان العظيمتان الرهبنات والجيش تستنزفان قوة البلاد المادية والمعنوية يضاف الى ذلك سوء ادارة الحكومة هناك ففقد التناسب فى أجزاء البلاد واختل تقويمها وقلت رغبة السكان فى العمل ومنهم من يعدونه شائنا فيدعون الشرف ولا يسعون لادنى عمل ولذلك تركوا فى الماضى الاعمال المهمة للمسلمين والعبيد ثم اخذ فكر الاغتناء يسود بسرعة بين القوم حتى اصبح افراد منهم يهيمون على وجوههم فى الارض ليغتنوا فى برهة قليلة ونشأت من ذلك مخاطر ومهالك ولم يعن العناية التامة باستحصال خيرات البلاد والانتفاع بزراعتها ومعادنها الانتفاع المطلوب .

ولك بعد هذا ان تتصوركم عدد المتسولين — عددهم مئة

لالوف من المتفرجين وذلك فى أمهات مدنها فميدان بلنسية يسع ستة عشر ألفا وميدان أشبيلية اثني عشر ألفا وميدان غرناطه سبعة عشر ألفا وهكذا أحدثت اسبانيا ساحات لهذه الفرج فى مالقة وسرقسطة وصلمنكة وقادس ومجريط والجزيرة وبرشلونة وغيرها أقل ما يسع منها تسعة آلاف نسمة ومن ذلك تحكم على مبلغ صبابة القوم بصراع الثيران ومكانته من نفوسهم .

الف ـ والمتشردين والطفيليين من كل صنف من الاصناف - لا جرم أن عددهم لم يبلغ فى مملكة مابلغه في اسبانيا . وكان من نتائج طرد العرب واليهود من اسبانيا ان انتقلت صناعات هؤلاء وأعمالهم الى الغرباء من غير الاسبانيين ولا تزال الى اليوم . حتى ان بعض الصنائع كالحرير والجلد والصوف والحبال قد بارت بخروج العرب من الاندلس ولا تزال معامل غرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها آخذة فى الانحطاط سنة عن سنة .

ومن أسوأ الأعمال فى اسبانيا جباية الخراج وتوزيعه وفساد الطرق فى انفاقه فلو استعاضت اسبانيا عن الانفاق على الجيش وعلى عشرات الالوف من الرهبان وعلى جمهور عظيم من الموظفين الذين لا يعملون عملا بفتح مدارس وتعبيد طرق وفتح أقنية وغرس أشجار لكان حقيقاً فى ذلك نجاحها الاقتصادى على ما أثبت ذلك المفكرون .

وبينا نجد فى فرنسا عشرين مليوناً ونصف مليون من سكانها البالغين زهاء أحد وأربعين مليوناً يعملون فى الزراعة نجد خمسة ملايين من الاسبان فقط أى ربع سكانها يعملون فى الزراعة . والزراعة مورد حياة البلاد الوحيد . ونجد فى اسبانيا ٤٨،٨ فى المئة من أرضها بوراً على حين لا ترى فى بريطانيا العظمى سوى ٢٨،٤ من أرضها لا يستفاد منه و٢٣ من أرض هولاندة و١٩،٣ فى ايطاليا و١٠،٢ فى المجر و٩،٩ فى ألمانيا و٩.٤ فى البلجيك

و ٦.٠٩ فى النمسا و ٩ فى فرنسا أما الاثنان والخمسون فى المئة من أرض اسبانيا فانها لا تزرع الا زراعة ناقصة بحيث أن الكيلومتر المربع لا يقوم باطعام أكثر من أربعين شخصاً وهذا ولا شك منبعث من أنانية الأغنياء وجهل الفقراء.

فى اسبانيا ١٥ ألف كيلو متر من الخطوط الحديدية و ٥٥ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة فى حين ترى فى فرنسا ومساحة المملكتين واحدة تقريباً ٦٩٨ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة و ٥١،٤٣١ كيلو متراً من الخطوط الحديدية وليس فى اسبانيا سوى ٢٩٨ كيلو متراً من الخطوط الحديدية فى كل عشرة آلاف كيلو متر على أنك تجد فى مثل هذه المساحة فى ايطاليا ٥٨٠ كيلومتراً وفى النمسا ٧٦٢ وفى فرنسا ٨٧٤ وفى ألمانيا ١٠٠٧ وفى بريطانيا ١١٨٠ وفى البلجيك ١٦٢٣ ولذلك يضطر المسافر فى اسبانيا ان يركب القطار من بلدة الى أخرى قريبة ومنها يذهب فى تعاريج على غير فائدة لانها ليست متصلة بجارتها بسكة حديدية مباشرة ومع أن معظم الخطوط الحديدية لشركات أجنبية فقد أصيبت بمرض البلاد نفسها وأعنى سوء الادارة ورداءة الحال.

داءان قتالان كان على الحكومة هنا ان تقاتلهما واعنى بهم انانية الاغنياء وجهل الفقراء. فالعلم متأخر جدا فى ارض اسبانيا لان نصف سكانها لا يقرأون ولا يكتبون وفى احصاء اخر ان من سكان اسبانيا ستة ملايين يقرأون وخمسة يكتبون

ويقرأون واربعة عشر مليونا أميون وليس فى البلاد اكثر من ٥٢ الف كتاب ومدرسة للذكور والاناث ولكليهما معا وفى فرنسا ٨٢،٢١١ مدرسة ابتدائية و١٠٥٧ مدرسة وسطى وفى اسبانيا عشر جامعات وهى جامعة مجريط وبرشلونه وغرناطة وافيدو وصلمنكه وسانتياغو وسرقسطه واشبيلية وبلنسية وفالادوليدا واذا فرضنا ان الواجب تعليمهم اربعة ملايين من الاولاد لاقتضى ان يكون لهم ٨٠ الف معلم ومعلمة اذا أردنا ان نسلم خمسين ولدا لكل مرب فى حين ليس فى البلاد سوى ٢٦ الفا اما المدارس الخاصة فلا تتجاوز الخمسة آلاف مدرسة وفيها نحو ستة آلاف استاذ دع رداءة التعليم فان التلميذ يصرف اوقاته فى التعليم الدينى والصلاة والمعلم غير موسع عليه يعمل متثاقلا بل قد يستجدى ويستوكف الاكف أحيانا لان الحكومة قد تقطع عنه راتبه الضئيل لقلة المال وليس هناك أماكن لائقة بالتدريس وحقيق بمن كان مثل هؤلاء المعلمين أن يحتاج الى من يعلمه

التعليم فى اسبانيا صورى غير عملى وجميع طبقات المدارس محتاجة الى الاصلاح الكثير وفى أمثال الاسبان « المعرفة الكثيرة تقود الى الالحاد » قال أحدهم : وليس على من يدعون أن التعليم لافائدة منه وليس فى العلم من الفضائل التى تنسبونها اليه

فى ارتقاء الشعوب الا أن ينظروا الى اسبانيا فهناك مثال من الجهل يضاف اليه اعتقاد أعمى .

***

كانت اسبانيا أيام عزها تملك البورتغال و نابل و ميلان وأقليم الفرانش كونته والفلاندر فى أوربا ومعظم مايدعى اليوم باسم أميركا الجنوبية وكثيراً من المستعمرات المهمة في أفريقية والهند وماليزيا ومن بورنيو الى كليفورنيا وما كان المحيط الكبير الا بحيرة اسبانيولية وبعد قرن من موت فيليب الثاني تناقشت وزارات أوربا فى الطريقة التى يجب بها تقسيم اسبانيا ولم تنجح هــذه الأمة فى مستعمراتها لانها لم تحسن حتى الآن ان تستعمر أرضها فقد استولت على جزائر ماريان والكارولين وغيرهما من أرخبيل المحيط قروناً بدون أن يخطر لها أن تستعمرها ولا تزال غير محتفلة بأملاكها فى خليج غينة وجزائر كناريا وقد تخلت عن المكسيك سنة ١٨٣٦ وعن شيلى فى سنة ١٨٤٥ وعن الارجنتين فى سنة ١٨٥١ وعن بيرو سنة ١٨٦٥ وعن كولومبيا سنة ١٨٨١ وعن كوباوبورتوريكووفيلبين سنة ١٨٩٧ وانتهت سطوتها الاستعمارية سنة ١٨٩٨ وكانت أيام حكمها فى تلك المستعمرات من أشأم الأيام السوداء فلم تكن اسبانيا ترسل الى أميركا الجنوبيــة — بل الى سائر مستعمراتها — سوى رهبان وموظفين وهؤلاء أضروا بها أكثر مما نفعوها . ولطالما أنذرت

المستعمرات دار الملك بالانسلاخ عنه فكان يهزأ بأقوال أهلها . ولقد أنذرت بلدية هافان عاصمة كوبا منذ سنة ١٨١٠ انها اذا لم تبدل قانونها الاقتصادى والجمركى تصبح كوبا بلدة غريبة فهزأت اسبانيا بهذا القول لأن اسبانيا ومستعمراتها كانت اذذاك ٣٨ مليونا من النفوس على حين لم يكن سكان الولايات المتحدة جمعاء يناهز الثمانية ملايين نسمة بيد ان العبرة بالكيفية لا بالكمية ولم تربح اسبانيا من حكمها الاعوام الطويلة بلاد أميركا الجنوبية الا نشرها لغتها ولا سيما فى المكسيك[1] وعدد السكان الاصليين هناك يقدر بثمانية ملايين ثم دخل فيهم غيرهم من المهاجرين ولا تزال الهجرة متصلة فتفقد اسبانيا كل سنة نحو مئتى ألف اسبانى يهاجرون الى أميركا وغيرها ويرتحل نصفهم على أن لا يعودوا اليها ولكنها تربح منهم أموالا فيرسلون اليها كل سنة بنحو مائة وخمسين مليون بستاس ومنهم من ينشىء المدارس والكنائس والمباني المخلدة المتلدة ليعطوها للحكومة عنوان حبهم بلادهم ومعرفتهم جميلها . وقوام هذا الحب العاطفة القديمة ليس الا .

أخذت الشعوب الاسبانية فى أميركا تميل بالعلم المجرد عن كل صبغة دينية حتى قال أحد رؤساء الكليات الاسبانية يجب علينا

(١) يقدر عدد المتكلمين باللغة الاسبانية أو القشتالية فى اسبانيا وامريكا الجنوبية عدا البرازيل وغريانا وامريكا الوسطى والانتيل وفيلبين وفى مستعمرات اسبانية أخرى بزهاء ثمانين مليوناً . ولغة البرازيل البرتقاليه وعدد المتكلمين بهذه اللغة فى أوربا وأميركا نحو ثلاثين مليونا

اذا أنصفنا أن نذهب الى أميركا نتعلم فى جامعاتها لانهم صبوا الى العلم المحض على حين لم تزل كلياتنا تتأثر بمؤثرات رجال الكهنوت . وكتب أحدهم منذ مدة ليس عندنا معاشر الاسبانيين ديوان تفتيش دينى الآن بل فينا فكر ديوان التفتيش الذى مازال يسرى فينا ويذلنا . ولذلك ترى ألوفاً من أبناء جمهوريات أميركا الجنوبية يرتحلون الى أوربا ليدرسوا فى جامعاتها ولا يغشون اسبانيا التى تجمعهم بها رابطة الدين والجنس واللغة لعلمهم بانحطاطها وهيهات ان يعود الى جامعة صلمنكة الاسبانية ـ المشهورة فى القرون الوسطى بانها احدى الجامعات الأربع التى كانت تفيض النور على عالم النصرانية ـ بهاؤها ورونقها القديم والمدارس فى جنوبي أميركا تسير على خطة المدارس فى فرنسا .

***

يقول بعض من كتبوا على اسبانيا انها بلاد ديمقراطية والحال انها ارستقراطية لأن الثروة والتعليم والتهذيب العقلى والحياة المرفهة السهلة كل ذلك خاص بفئة صغيرة من أهلها وجمهور الامة يعيش محروماً كل ذلك والغلاء فاحش فى البلاد لا في الكماليات التى تجلب من الخارج بل فى الحاجيات وليس للاسبان حياة المجتمعات فان الاجتماعات والضيافات خاصة بالكبراء وقلما يخرج القوم من بيوتهم وقلما يسافرون ولا ذوق لهم فى الاستمتاع بالطبيعة لسماع

أصوات الطيور فى الغابات والتمتع بالهواء الطلق والمناظر الجميلة والطبقة الوسطى قريبة من الدنيا لولا طلاء ظاهرى عليها على انك ترى فى الشعب السذاجة والاستقامة والكرم صفات أحتفظ بها .

العامة فى الاسبان تتكلم كالخاصة لغة واحدة فصيحة لا تفاوت بينها والشعب خاضع صبور يحتمل مصابه . وقل ان ترى فى اسبانيا من أبناء الطبقة الوسطى من يحسنون المدخل والمخرج ويعملون عملا صالحاً اللهم الا فى بعض المراكز وقد تألفت منذ نحو ثلاثين سنة منهم طبقة مستنيرة فى الجملة ولكنها قليلة ومع هذا بقيت المرأة فيهم على حالتها الأولى . وان القوم لينقصهم كثير من مبادىء الآداب الأولية الشائقة بين الأمم الراقية كالفرنسيس والانكليز والألمان وغيرهم فتراهم يدخنون فى كل مكان خاص وعام ويبصقون فى القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع على صورة تشمئز منها النفس . والطبقة العليا الغنية فى الاسبان تعيش عيشاً يقرب من عيش جمهور الناس فى انكلترا وفرنسا .

كانت التيوكراسية والبلوتكراسية والبوروكراسية أى الحكم الالهى والدينى والقرطاسى ـ أو الحكومة التى تدعى بأنها تصدر عن وحى سماوى أو تكون مأخوذة بوازع دينى أو تطيل فى أوضاعها ومعاملاتها ـ من أمراض اسبانيا الاجتماعية فيما مضى ويزيد عليها اليوم مرض آخر وهو حب الجندية La Caciqu sm وليس

فى الاسبان عيوب متأصلة فى عنصرهم بل عيوب عرضية ناشئة من التربية وقلة المعرفة وفساد النظام والأحكام ومعظم هـذه الأمراض عارضى . ثم ان الاسبان من جهلهم بأنفسهم يجهلون غيرهم ويكرهون الغريب وان أظهروا له على رواية بعضهم كرماً ولطفاً وقد اقتبسوا هذا الخلق من العرب كما قال فيهم أحد الباحثين .

وانا على ما نرى الآن من عيوبهم فى قذارتهم وتشردهم وجهلهم وقلة عنايتهم بالعمل احتفالهم بالصناعات وميلهم الى الاعتناء السريع نشهد فيهم صفات صالحة للبقاء وهى الثبات والصبر وحب الاستكثار من البنين والبنات والميل الى الشعر وهم من كثير من الوجوه يشبهون أهل سورية فى هزلهم واستكانتهم وتبلغهم بميسور العيش أو انبعاث هممهم الى أقصى مراميها . والاسبانى ولا سيما فى الجنوب يميل الى البطالة والراحة ويتفخل ويتعجرف ويولع بالخيالات وهم فى المدن والقرى يجتمعون أولاداً ونساء ورجالا على الابواب وفى منعطفات الطرق ويتهازلون ويتلاكمون حتى لتظنك فى قرية كبيرة من قرى الشام تبرنط أهلها فقط أى لبسوا البرانيط أو البراطيل أو القبعات وأحسن ما فيهم كثرة النسل ومنه مادة نجاحهم فى المستقبل وزيادة السكان تساعد على الانتخاب الطبيعى فى المجتمع وتضطر الناس الى العمل وتضمن النجاح الاخير للذكاء

ان الامة الاسبانية التى وحدت قواها فطردت العرب

فى القرون الوسطى ثم وحدت قواها فى القرن التاسع عشر فطردت الفرنسيس على عهد نابوليون من أرضها قد اثبتت اذا انصفنا وطنيتها فى تينك الوقعتين المهمتين بيد أن من عيوبها أنها لا تستفيد من الخارج وقد أخذت الآن تفكر في مستقبلها ورقيت منذ انصرفت عن مستعمراتها لولا أن عادت فحدثتها نفسها بامتلاك الريف وحرب أهله فى مراكش ففشل جيشها وكان مؤلفاً من ثمانية عشر ألفاً أسر مع قواده وضباطه فعادت اسبانيا وأرسلت على الريفين أو بادية المغرب الاقصى مئة ألف مقاتل وما تدرى أيلتئم انتصارهم على هؤلاء البدو على ما فى نفوسهم من شمم وما فيها من العجب والخيلاء فيقال لهم بعد زمن قد ظفرتم ولكن بمن ؟ واذا غلب الريفيون فليسوا أول شعب ضعيف ذل أمام قوى . واذا استولى الاسبان على الريف وخضع لسلطانهم من أقصاه الى أقصاه لا يساوى جزءاً من المال والدم المهراق وأرض اسبانيا الجميلة أحق بالعناية والاستثمار

البورتقال بعد العرب

٢٤

ليس بين اسبانيا والبورتقال حدود طبيعية ولما وافى العرب شبه جزيرة ايبريا لم تكن مملكة البورتقال قد تأسست ولا لغتهم قد تم تأليفها وتقدم العرب الى بلادهم فاستولوا عليها وكان شأنهم في لشبونة عاصمتها اليوم على المحيط شأنهم في بلنسية على البحر المتوسط فرسخت حضارتهم في لشبونة وشنترين وشنترة ويابره وبطليوس وشلب وولب وباجة وطبيرة وقلمرية وشنت مارية كما رسخت في برشلونة وطرخونة وبلنسية ودانية وقرمونة ووادي آش وغرناطة وجيان واشبيلية وقرطبة . وكان غرب الاندلس أو أكثر بلاد البورتقال من أول ما تخلص من حكم العرب في القرن السادس .

ولم يشتهر البورتقاليون كثيراً في كتب العرب الاندلسيين بل كانوا يطلقون في الغالب اسم الروم على الاسبانيين والبورتقاليين معاً كما كانوا يطلقونه على غيرهم من أجيال الفرنجة واذ كان مقام البورتقاليين في شبه جزيرة ايبريا ثانوياً — بالنسبة للاسبانيين كانت تأثيرات اللغة العربية أيضاً في اللغة البورتقالية أقل منها في اللغة الاسبانية وتأصلت فيهم عادات العرب أقل من تأصلها في جيرانهم

غزا العرب البورتقاليين فى الزمن الذى غزوا فيه الاسبان ففتحت بلادهم أواخر القرن الاول للهجرة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد وجاءها أناس من جزيرة العرب وبلاد البربر فنزلوها وعمرت بهم كما فعل اخوانهم فى بلاد اسبانيا حتى أصبحت كأنها مملكة اسلامية من بلاد العرب

ولما انحلت الدولة الاموية فى المشرق خضع لسلطان عبد الرحمن الداخل معظم شبه جزيرة ايبريا ومن جملتها بلاد البورتقال فاورثها هو وأخلافه عمراناً وثروة وبلغت لشبونة (اشبونة) عاصمتها أقصى مراقى العمران فى أيامهم ولم تكن بالبلد الطيب قبل العرب ، وما لبث البورتقاليون أن ألفوا حكومة لهم فى بلاد الجلالقة أخذت تقوى مع الزمن وتسير على الأغلب مع مملكتى قشتالة واراغون جنباً الى جنب فى قتال العرب .

قال مؤرخو الافرنج : خرب العرب بلاد البورتقال يوم خربوا افيلا وصلمنكة سنة ٣٩٩ هـ وافتتح الفونس الخامس جزءاً من البورتقال سنة ٤١٨ — ١٠٢٧ وسنة ٥٤٣ أخذ ملك البورتقال لشبونة وشنترين [1] وشنترة وفى سنتى ٥٥٣ و ٥٧٣

---

(١) قال الاصطخرى فى كتاب الاقاليم : وشنترين التى على البحر المحيط بها يقع العنبر ولا يعلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع غير الاشنترين . . . ويقع بشنترين فى وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر فى لون الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً وهو عزيز قليل

توسع البورتقاليون فى فتوحهم وفى سنة ٥٨٥ خرب العرب بلاد البورتقال خصوصاً لشبونة ثم عاد البورتقاليون فى السنة التالية ٥٨٥ — ١١٩٠ م فاستولوا على عدة حصون ، ويقول مؤرخو العرب ان ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس ملك سنة ٥٨٣ مدينة شلب وهى من كبار مدن المسلمين واستولى عليها فسار صاحب الغرب والاندلس بعسكره فقاتلهم حتى ذلوا وسلموا ولما كان فى سنة ٥٨٥ قصد بطرو ابن الريق (؟) مدينة شلب فنزل عليها بعساكره وأعانه من البحر الافرنج بالبطس والشوانى وكان قد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبى البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها ثم عاد المسلمون فأخذوها وأخذوا من بلادهم حصناً يقال طرّش .

تولى أمر البورتقال تسعة ملوك من الأسرة البورغونية حكموها الى سنة ١٣٨٣ م فقووا قلوب أهلها واشتغل البورتقاليون بدفع العرب عن بلادهم ، وعاونوا اخوانهم الاسبانيين معاونة شديدة للخلاص من العدو المشترك فقد هزم البورتقاليون المرابطين فى وقعة شنترين وخلصوا جزءاً مهما من بلادهم وغلبوا

فيجمع منه وينسج منه ثياباً فيتلون فى اليوم الوانا ويحجر عليها ملوك بنى أمية فلا تنقل الاسرا وتزيد قيمة الثوب على الف دينار لعزته وحسنه اه قلنا وشنترين ليست على البحر المحيط ولكنها قريبة منه

العرب وعاونوا القشتاليين سنة ١٢١٢ فى وقعة العقاب التي أفضت كما قال ابن الأبار الى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها . وكانت السبب الأقوى فى تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ، وعاون البورتقاليين سنة ١١٤٧ م ، ٥٤٣ هـ جيش مؤلف من الصليبيين الفرنساويين والانكليز والالمان والفلامانديين للاستيلاء على لشبونة وفتح الفونس الثالث القسم الجنوبى من البورتقال المعروف عند العرب باسم الغرب Algarve ١٢٤٩ - ١٢٥٣ بعد ان ملك العرب هذه الولاية من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر ، ومنح ملك البورتقال المغلوبين الذين بقوا فى لشبونة من العرب بعض الحرية فظلوا فيها ، وقويت بهم التجارة البحرية ، وقد أسعد الحظ بلاد البورتقال فجاءها منذ استقلت ملوك الا النادر منهم على جانب من الدهاء والعقل يحسنون الغارة كما يحسنون الادارة فوسعوا حدود بلادهم وقووا الوطنية البورتقالية وعرفوا أمتهم طعم الاستقلال حتى ان أحدهم جلس على سرير الملك خمساً وستين سنة وقوى ملكه حتى قطع أمل ملوك قشتالة من بلاده وخلصها كما خلصها أخلافه من سطوة النبلاء ورجال الكهنوت فلم تترك البورتقال مجالا لجارتها القوية اسبانيا أن تأخذها .

ولما فتح البورتقاليون اقليم الغرب في اقصى الجنوب الغربي من شبه جزيرة ايبريا أخذوا يتوسعون فى فتوحهم فركبوا البحر وفتحوا بعض مدن الغرب الاقصى ولا سيما طنجه وأرسلوا

الى بر العدوة من الجند بقدر ما كان أهل بر العدوة يرسلون منه نجدة لاخوانهم الاندلسيين العرب ثم شغل البرتقاليون بعد ذلك باكتشافاتهم البحرية ومستعمراتهم الجديدة فعدلوا عن التوغل فى الغرب الاقصى بل أزمعوا الرحيل منه .

وعلى ذكر الصليبيين الذين عاونوا البورتقاليين للاستيلاء على لشبونة لا بأس بأن نشير الى ان الاسبانيين والبرتقاليين كثيرا ما كانوا يستنصرون بجيرانهم من ملوك الافرنج فينجدونهم فقد جاء سنة ٤٨١ عدة أمراء فرنسويين لمعاونة اسبانيا على العرب وكذلك شخص كثير من الطليان وكلهم بأمر البابا وفى سنة ٦٠٨ قصد صاحب الاندلس قلعة عظيمة للافرنج تدعى شلب تره ففتحها بعد حصار تضييق عليها شديد فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرعب فخرج الادفنش الى قاصية بلاد الروم مستنفرا عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها حتى بلغ نفيره الى القسطنطينية ووافقه صاحب ارغن وفى سنة ١٢١٠ م تحالف جميع ملوك النصرانية على التعاون على المسلمين واستنفر البابا أينوسان الثالث جميع امم أوربا الى غزو عرب الاندلس فاجتاز جبال البيرنات ستون ألف مسيحى لقتال العرب .

ولما انهزم الفونس ملك الفرنج وكان مقر ملكه طليطلة فى سنة ٥٩١ أقبح هزيمة عاد الى بلاده وركب بغلا وأقسم انه

لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة الى أن ملكوا أكثر مدن الاندلس .

وهكذا كان ملوك الافرنج ينصرون ملوك قشتالة وارغن وليون خصوصاً من عرف منهم شوكة العرب اذ ذاك أمثال حكومات ايطاليا وفرنسا ، ولكن الفرنج كان ملوكهم من الضعف فى تلك الازمان بحيث يعجز كل واحد عن حفظ بلاده دع استخلاص بلاد غيره . ثم ان الحروب الصليبية التى دامت نحو قرنين أخرت قليلا اخراج العرب من الاندلس ولو سيرت عليها بعض القوة التى سيرتها الى الأرض المقدسة لما طال حكم العرب على الاندلس الى أواخر القرن التاسع للهجرة .

كانت البرتقال تعتبر شريفاً كل برتقالي أسره العرب ولم يصبأ عن دينه الى الاسلام ، وكذلك كل من حاربوا العرب فى وقعة أوريك سنة ١١٣٩ التى كتب فيها النصر للبورتقاليين ولا تعد فى الاشراف كل من ضربوا امرأة بسيف أو رمح أو كذبوا أو هربوا من معركة وقعت للبورتقال مع العرب .

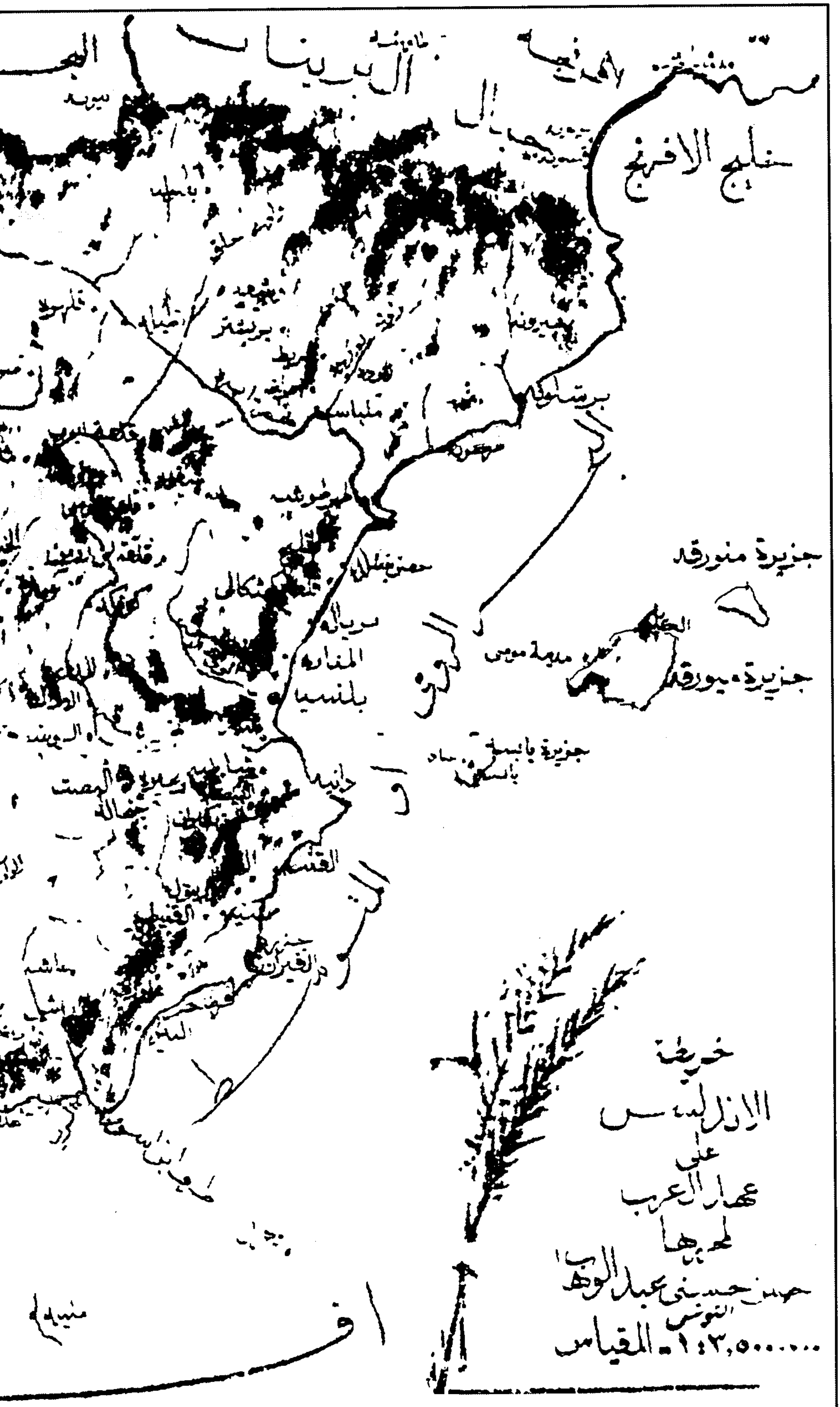
وما برحت البرتقال تئن من سلطة رجال الدين أنين جارتها اسبانيا وهى فى يد الباباوات كالخاتم فى يد لابسه يقلبه كما يشاء حتى نادت منذ ثلاث عشر سنة بالجمهورية وتخلصت من سلطة الكهنوت ، وكان أول عمل لها طردها الرهبنة اليسوعيــة من

بلادها واستصفاؤها اديارها والقضاء على الرهبان والراهبات انتقاما منهم (المقتبس م ٥ ص ٤١٠) على سعيهم فى قتل فريرا رجل الاسبان الحر وكانوا قتـلوه بمساعيهم لدى الحـكومة على أبشع صورة عرفت فى عصر النور والمدنية فتخلصت البورتقال كما تخلصت أختها برازيل من قبل من الحكم الملكى ولها اليوم ٣٨٥٠٠٠٠ كيلو متر من المستعمرات يبلغ سكانها عشرين مليون نسمة ويبلغ سكان البورتقال ستة ملايين نسمة ينزلون فى ٩١٩٤٨ كيلو متراً ولا تزال حصون العرب الى اليوم على قمم الجبال فى مدينة شنتره ، وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره الى الآن وعلى مقربة منه قبر دفن القوم فيه عظاما وجدوها ولم يعلموا أنها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال والقسم الذى كانت تسكنه العرب فى لشبونة يعرف عندهم باسم الحمة (لا بتشديد الميم) ويسميه البورتقاليون الآن من باب التحريف الغاما ومنظر هذه المدينة يشبه المدائن الشرقية ومن أمهات مدن البورتقال كويمبرا Coimbra المعروفة فى كتب العرب باسم قلمرية . وهى الآن دار العـلم ومحط المعارف فى بلاد البورتقال ومنها مدينة بورتو واسمها فى كتب العرب برتقال وبها يسمى هذا القطر بورتقال . وفى هذه المدينة دار البورصة بنيت على الطراز العربى ونقشوا أعظم بهو فيها بالطراز العربى وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها اشعاراً عربية . وفى متحف

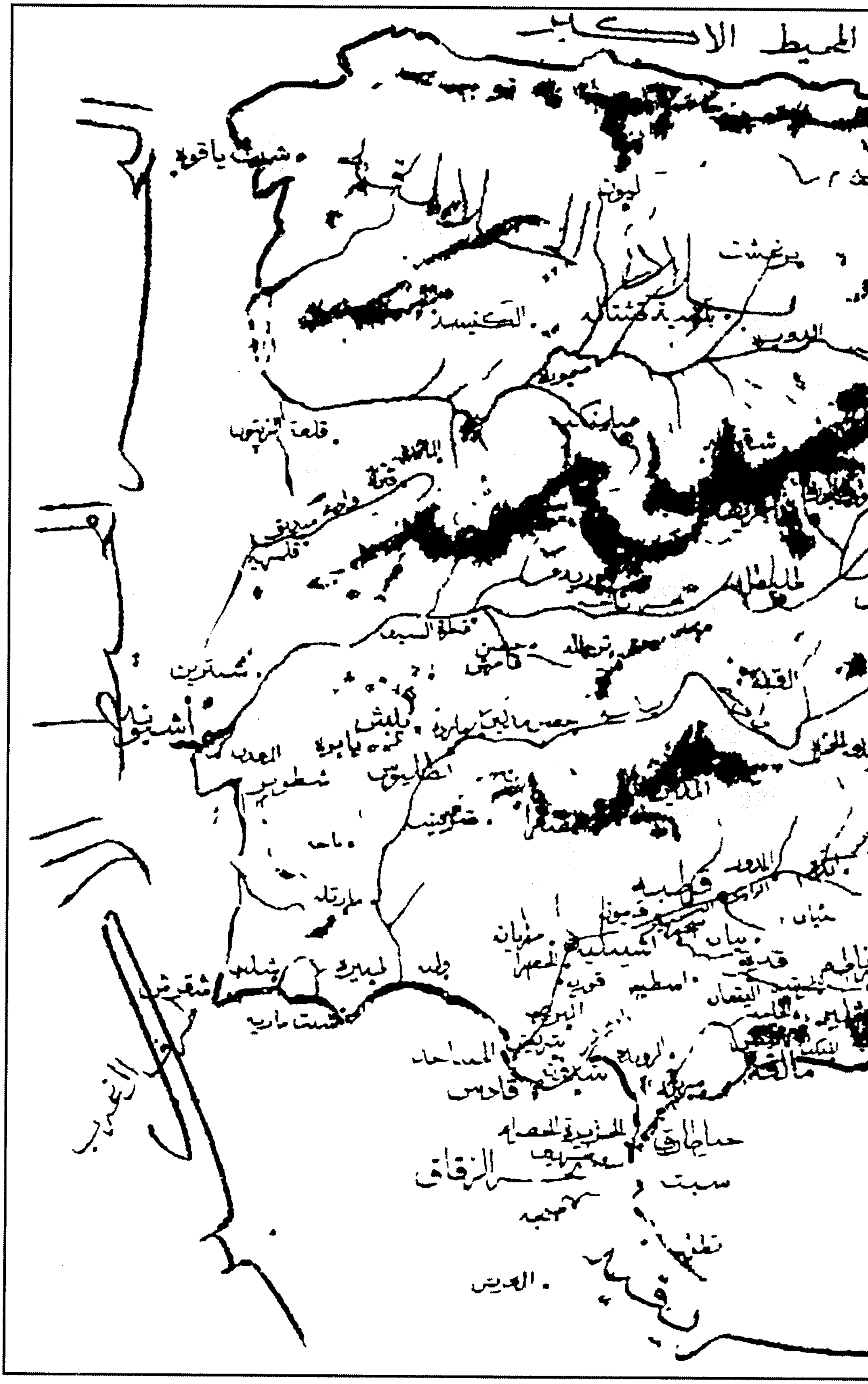
لشبونة على ما حدثنى به الثقة كثير من الآثار العربية ولا سيما ما أخذه الالمان من الشام قبل الحرب الاخيرة فوقع فى أيدى الحلفاء فاعطوا السفينة الالمانية وما حوت للبورتقال لانها أسرت فى بحرها وذلك من جملة مكافأتهم لها على محاربتها فى صفوفهم وتجنيدها ثمانين ألفاً من كماة رجالها .

فهرس

كتاب غابر الاندلس وحاضرها



خريطة
الاندلس
على
عهد العرب
لمحررها
حسن حسني عبد الوهاب
التونسي
المقياس = ١:٣,٥٠٠,٠٠٠
خليج الافرنج
جزيرة منورقة
جزيرة ميورقة
جزيرة يابسة
برشلونة
بلنسية
المنارة



شنت ياقوب
ليون
برغشت
قلعة
شنترين
أشبونة
باجة
قرطبة
استجة
مالقة
قادس
الجزيرة الخضراء
سبتة
بحر الزقاق
طنجة